A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

UNIVERSITY
LIBRARY

A.U.B. LIBRARY

CA
232.9
R39VA

ثمن النسخة الواحدة ٣٠ غرشاً صاغاً

٢٨٥٨٨

تاريخ المسيح

تأليف الفيلسوف المؤرخ (ارنست رنان)

الذي كان العلماء من الاكليروس يقاومونه في حياته كما يقاومون تولستوي اليوم

ملخص تلخيصاً يبقى معه موضوع الكتاب ويذهب به ما لا تروق مطالعته وذلك
كما فعل رنان في المختصر الذي لخص به كتابه هذا لغرض تاريخي ادبي اراد به
اطلاع عامة القراء على مبادىء يسوع الحقيقية وجمال حياته لا البحث الديني ·
فضلاً عن تاريخ الوسط الاجتماعي الذي عاش فيه يسوع ووصف البلاد
التي نشأ فيها مما لم يُنشر قبل اليوم باللغة العربية

بقلم

فرح انطون

منشىء مجلة الجامعة

39615

« وكنت معتقدة بانه اذا خيف عليه من حكم الرجل الطائش »
« الفكر الضيق الصدر فان كل ذي نفس متمسكة بالدين تمسكاً »
« حقيقياً لا بد ان تفضي بعد قراءته الى الرضى عنه والسرور به »
« كلام لرنان في المقدمة عن كتابه هذا مخاطباً اخته التي اهداه اياه »

الاسكندرية ٣٠ اغسطس سنة ١٩٠٤

مطبعة « الجامعة » بالاسكندرية بباب رشيد

CA

[illegible]

[illegible]

الباب الاول

مقدمة المعرب

([illegible])

لكل علم وفن طريقان مشهوران - الطريق الاولى : طلب الفن لذاته ؛ بصرف النظر عن نفعه اذ لا غرض من هذا الطلب سوى زيادة ذلك الفن والبلوغ الى حقيقته . والطريق الثاني : طلب الفن لفائدته الاجتماعية اي تطبيقه على المجتمع البشري للاستفادة به وتحسين احوال الهيئة الاجتماعية

ولما كتب الفيلسوف رنان كتابه « تاريخ يسوع » هذا سلك فيه الطريق الاول قال في مقدمة كتابه « تاريخ الرسل » بعد صدور تاريخ يسوع ما نصه

« ولقد كتب الي بعض الناس من كل صوب يقولون « ما غرضك من هذا وماذا تريد به » فاجيبهم بان غرضي هو كغرض كل مؤلف يكتب في التاريخ . ولو كنت في عدة اعمار لا عمر واحد لوقفت احدها لكتابة تاريخ الاسكندر المكدوني والثاني لكتابة تاريخ آثينا والثالث لكتابة تاريخ الثورة الفرنساوية والرابع لكتابة تاريخ جمعية سان فرنسوى . واي غرض يكون لي اذا كتبت هذه الكتب ؟ لا يكون لي من غرض سوى وجود الحقيقة والجمال واعادة ذكر الحوادث الكبرى التي حدثت في الزمن الماضي بقدر ما يمكن من الصدق والتدقيق »

وقال في صلاته على الاكروبول (1) التي هي اشهر ما كتبه مخاطبا الالاهة آثينا الاهة الحكمة عند اليونانيين وهي مرموزة [illegible] :

« ثم الى لا تعلمين كم صارت خدمتك صعبة في الارض (2) فان كل المدينة ذهبت منها . وقد ملك السكيثيون العالم ولم يبق فيه جمهوريات مؤلفة من الناس الاحرار

(1) راجع [illegible]

(2) [illegible]

بل كل ما فيه مولد خرج من دم نقي . حالات لو وقع نظرك عليهم لضحكت منهم ؛ وكذلك مدّعون قلائل يحنون اخفض الرأس لكل من يخدمك . وقد تألف من كل الصغار والحقراء عصبة طوقت العالم بالتف من رصاص تكاد تخنق النفوس . حتى الذين لم [illegible] يخدمونك كلهم يخفون دقات قلبك . ان تذكرني ذلك المكدوني الذي جاء منذ [illegible] عاماً وحطم هيكلك العظيم [illegible] ان جميع الذين يخدمونك اليوم يضعون [illegible] فقد كتبت بحسب القواعد التي تحبينها ايتها الالاهة تاريخ حياة الاله الشاب الذي خدمته في صباي [illegible] وقد صاروا يكتبون لي [illegible] الا اقصد [illegible] ولكنهم لا يرون [illegible] الا في ما [illegible] . ولكن يا ايتها [illegible] هذا الكتاب [illegible] تاريخ الالهة . [illegible] ذلك [illegible] ما [illegible] من الروح [illegible] الى [illegible] ان هذا الروح لا يزال حياً في قلب الانسانية [illegible] الى الابد »

فيتضح مما تقدم ان غرض رنان من كتابه كان « طلب الفن لذاته » وهو الطريق الاول . [illegible] بعد ذلك الى سلوك الطريق الثاني وذلك في المختصر الذي [illegible] لعامة الشعب والقراء . والعرب قد حذا حذو المؤلف في تعريب هذا الكتاب

[illegible] على ذكر شيء من الاغراض التي حملتنا على هذا الكتاب من اجلها وكتبنا هذه المقدمة [illegible] القارىء اولاً تاريخ تعريب الكتاب

[illegible] منذ نحو [illegible] سنة ندرس كتب مشاهير الكتاب والفلاسفة في اوروبا كنا نعثر فيها كثيراً على ذكر رنان وذكر كتابه تاريخ يسوع . فاوجبنا على نفسنا ان لا نطالع كتب رنان ولا نقف على كتابه هذا الا بعد زمن . وذلك لانا كنا نجهل رنان [illegible] بعكس ما هو في الحقيقة . وبعبارة اوضح نقول ان اعتقادنا فيه كان كاعتقاد الذين [illegible] اليوم منه دون ان يدرسوا [illegible] ويقرأوا كتبه . فنحن [illegible] احد الكتاب في [illegible] شريف [illegible] من الكتب التي نحث في تاريخ الانسان لانا كنا [illegible] في [illegible] الجزء الاول من الجامعة السنة الثالثة . فهنا [illegible] الكتب وقع في يدنا كتاب صغير [illegible] وعنوانه « تاريخ يسوع » [illegible] رنان [illegible] حين وقع نظرنا على هذا العنوان [illegible] الكتاب [illegible] غير انا [illegible] حتى [illegible] ما كتبه رنان [illegible] انه مختصر كتابه الكبير وانه [illegible] الشعب [illegible] وحذف منه كل ما لا [illegible] الى صاحب

(١) هذا [illegible] من [illegible] الى [illegible] من [illegible] ولكن [illegible] على [illegible] صورة [illegible]

المكتبة واوصيناه بان يجلب لنا النسخة الاصلية . ولما وردت علينا اخذنا في مطالعتها . وما لبثنا فيها حتى انقلب رأينا في رنان اشد انقلاب . فعرفنا تماماً سر ما في كلامه من الاعجاب والسحر الذي لا حد له في تاريخ المسيح [illegible] روح [illegible] نفسه

ومنذ هذا الحين تركنا كل شغل تقريباً وانقطعنا الى قراءة كتب رنان . فقرأنا [illegible] الحياة [illegible] كل مطالعة غيره . وكنا نحسبه حيناً [illegible] لانا لا نستطيع فراقه . وهكذا زاد [illegible] حيث قرأنا [illegible] منه تحت [illegible] في يوم احد . وزار [illegible] حيث قرأنا عدة فصول فوق الرصيف البعيد الذي [illegible] على نغم الامواج [illegible] ساحة [illegible] المياه » [illegible] الاسكندرية [illegible] حيث [illegible] في ذلك [illegible] والروح في ذلك الوادي الذي [illegible] مظاهر [illegible] في البرية [illegible] حتى في [illegible] ما مرت خمس ساعات متوالية ونحن [illegible] في قراءة رنان الساحر [illegible] عن كل شيء حتى عن [illegible] الغداء

وهنا وصلنا الى السبب الذي دعانا الى تعريب هذا الكتاب .

لم نفرغ من مطالعة كتب رنان حتى وجدنا [illegible] ان من واجبنا نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية . وكان ذلك لاسباب جزئية واسباب كلية . اما الاسباب الجزئية فمنها افتقار اللغة العربية لكتاب [illegible] في [illegible] الا [illegible] ومنها حلاوة كلام رنان [illegible] في الكتابة والتأليف . وهذا [illegible] معروف [illegible] رنان [illegible] الكاتب العربي في [illegible] الانتقال الادبي الذي نحن الآن فيه في الشرق [illegible] الانظار من هذا الوجه الى ما [illegible] الافرنج الراقية [illegible] الادب والكتابة [illegible] لغة رنان

ولكن هنالك سبباً اهم من هذه الاسباب كلها . [illegible] عبارة عن بحث في [illegible] الاجتماعية والسياسية [illegible] الشرق [illegible] ولا وجدنا الارض مفروشة ورداً في كل طريقنا . [illegible] في الشرق [illegible] الادبية [illegible] الاستقلال [illegible] من الاستقلال [illegible]

ان نكسر كل قيد غير قيد العقل والحكمة ونتصل بما نرى نشره ضروريا نافعا فنقدمه في سبيله من العثرات . فاما ان يكون الفن حراً مطلقاً يحفظ ما يوحى اليه ولما ترك الى صناعة عنوانها الخوف من مخالفة وكتبها اكثر من كتبه والغرض لسخط الساخطين ونقد الناقدين الى فيها منه في صناعته

ومن اجل هذا وجدنا بعد مطالعتنا كتاب رينان انه اصبحنا نعتقد ان من واجباتنا نقله الى اللغة العربية كما قلنا آنفاً . وقد يتبسم لهذا القول الذين يحتقرون صناعة القلم ولا يرون فائدة لغير المادة والقوة المادية فنحن لا نجيب على هذا الا بكلمة واحدة وهي ان العالم لم يصل بعد الى الطور والعمر الذي يشعر صاحبه فيه بروح التقدم بعد اختباره حيوانية البشر ووقوف هذه الحيوانية في سبيل كل ارتقاء وكل رجاء في العالم . ونحن نحمد الله على ذلك . ولذا كان في المستقبل البعيد الحظ سيصل الى ذلك الاعتقاد ويتيقن بفائدة العلم والادب في تحسين حال الانسانية في الارض وابلاغها طور الكمال في مستقبل بعيد او قريب وتعزيتها وتسليتها في اثناء سيرها الى ذلك الطور فنحن الآن نقول انه منحصر والسناء الاعظم بعضارة وهي الايمان الادبي . ومن الآن الى ذلك الزمن دعونا نخرج ما نستطيع اخراجه بهذا الايمان بدونه يستحيل على الكاتب الذي يطلب الفن لذاته ان يفعل ما يجب فعله فيه

فنقلنا تاريخ المسيح الى اللغة العربية كان اذاً بناء على هذا الايمان . وغرضنا منه توجيه الانظار في الشرق الى الدرس حياة يسوع تعني الفكرة الاجتماعية والفكرة الدينية التي خلقها يسوع وصرف حياته في شرحها وتأييدها واحتمال الموت والعذاب والاهانة في سبيلها . وهنا ايضا لا يعدم هذا الكلام من يتكلفه مزيد من سوء فهمه قائلاً : أين عصرنا من عصر يسوع وهيئتنا الاجتماعية من الهيئة في زمن يسوع . فنجيب لا تسرعوا في الحكم فان المبادئ التي وقعت حولها تلك المعركة الهائلة بين يسوع واعدائه في اسوار اورشليم منذ ١٩ قرنا لا تزال الى اليوم قائمة قاعدة في كل مكان بين هذه الحيوانات الناطقة التي تدعى البشر وهي المسألة الادبية التي لا يعلم احد ورائه كيف يكون حلها في مستقبل الانسانية

انظروا الآن الى العالم نظرة تجدوا ذلك العراك حول تلك المبادئ وتجدوا كل الفروع في العالم الاجتماعي لا يزال القائم هنالك بل ان عصر المسيح لم يبلغ مقدار ما بلغه هذا العصر الاستكباري من سلطة المال وقوته . فنحن الآن في عصر كل شيء فيه يباع ويشترى بالمال حتى الضمائر والعقول . ولا نزال نرى الامم تجتمع في ايد

ناريا تحت ستار قانون متساهل والباقون من الامم عبيد ارقاء لاهل المال عبودية اثقل من العبودية الشخصية القديمة . فالابن من البشر غرقون في حمأة الفقر والضيق والشقاء وفرد واحد يحتشد في خزائنه ملايين . ولا تزال القصور كما ارتفعت وتفخمت وامتلأت تحفا وحليا وزخارف تفرغ نفوس اصحابها من كل جمال وحق ورحمة وتزداد صغارا وغلظة وكبرياء وازدراء بالناس وطمعا في ان يكون لها سلطة على كل شيء في الوجود حتى النفوس . وفي اثناء ذلك تراءى من البساطة والطبيعة والاخلاص والصداقة والالفة والفضيلة وتأوي الى اكواخ الفقراء والمساكين لعلها تجد فيها ملجأ . فتعود تلك ضيقة من وجه آخر . وهكذا تفسد الانسانية بهذه الحالة فسادا مزدوجا . فسادا فوق بكثرة الرزق كثرة فوق الحاجة وفسادا تحت بالحاجة الى الرزق .

هذا من حيث الامر الاجتماعي . اما من حيث الامر الديني فالحال فيه ليس باقل مما تقدم . فلا يزال الشيطان الساكن في جوف الانسان — اي شهوته وهواه — يغريه بخرق كل نظام لتقديم شهوته على كل مصلحة . لا يزال في الدنيا كهنة ورهبان يتخذون المبادئ سبيلا الى المصالح ويقبلون ذيول الاغنياء والكبراء ويهملون الفقراء مع انهم سواد الامم . لا يزال الدين مقيدا بالهياكل والكهنة والظواهر فيه مقدمة على البواطن . وبعبارة اخرى نقول لا يزال اصل الدين — الذي هو محبة الله والناس وتقديس العواطف — معدودا امرا ثانويا واتباع الفروض والسنن الموضوعة امرا جوهريا اصليا . وهكذا يكون الدين سببا لفساد بدلا من ان يكون سببا للصلاح . اذ لا يكون حينئذ غاية الانسان ما يحمله في قلبه من الجمال والخير بل ما يحمله على شفتيه من الكلام الفارغ . ويصير الدين سلعة هينة اكثرها الفناء في صغار النفوس وضيق الصدور

فهذه الحالة — الاجتماعية والدينية — هي الحالة التي صدمها يسوع بهديه في النفوس مدة ولكن الزمان عاد فاعادها . بل ان الزمان زاد عليها امرا اشد هولا منها . فقد قام بين البشر قديما وحديثا قوم يقولون بخلاف هذه . ما هو الحق والحقيقة التي يدعى اليها . ان هي الا وهم وخيال . فالقوة هي الحق . فالحق حق من عز . وقالوا لا بد من هذا ان يكون في المجتمع البشري اقوياء وضعفاء . اغنياء وفقراء اسياد وعبيد . كانوا وما كانوا . وهذه سنة طبيعية وجدت مع البشر ولا تفارقهم حتى يفارقوا الدنيا فما الفائدة اذا من هذه الخيالات والتصورات التي يصورها عبثا الاديان والآداب . ان الانسان وجد ليعيش في الارض ويتمتع فيها . فعليه ان يقبل هذه الحالة كما هي ويكتفي بها . والا كان ابله احمق يترك الحقيقة ويتمسك بالخيال . واذا اقتضى الامر ان يعتدي على عبيد

[illegible] قبل كل شيء ان يعيش ويجمع ما [illegible] هي الغرض من الحياة [illegible] والآداب [illegible] الاعتبار [illegible] الاخلاق [illegible] ولذلك [illegible] كل الاخلاق [illegible] من الشعب [illegible] والاجتماع والتكر [illegible] هذا [illegible] الذي [illegible] ذلك [illegible] ذلك الامر [illegible] الاخرى [illegible] هذا [illegible] الآخر [illegible] ان يعيش [illegible]

[illegible] في الامة [illegible] البنية الاجتماعية [illegible] كل نظام [illegible] طريقة [illegible] لا يكون [illegible] عبارة عن مسألة [illegible] ومسألة اجتماعية [illegible] عن طريق [illegible] الآلات [illegible] هذا الكتاب [illegible] الكلام في الطرق التي [illegible] هذه الآلات [illegible] في هذا الكتاب [illegible] الطرق [illegible] فمذهب [illegible] مذهب [illegible] ومذهب [illegible] مذهب [illegible] فالمذهب الاول يقضي [illegible] قبل كل شيء [illegible] والمذهب الثاني [illegible] قبل كل شيء [illegible] الارض [illegible] سطح الارض [illegible]

[illegible] الاعمال [illegible] الا [illegible] في هذه الدنيا [illegible] في الارض [illegible] الاشياء [illegible] ذلك [illegible] لا يكون [illegible]

الاولى الاختراع والاكتشاف وهي في هذا الامر شريكة الشمال الاميركي ورفيقته ، والثانية نقل المذوقات الصناعية المدنية بالارواح ونفوذ الترقية عناصرهم بها . والثالثة بث روح النشاط بالقوة والحرية ومكارم الاخلاق في نفوس الامم خصوصاً الاضعف منها ليتهذبوا ولا يحسدوا الاقوياء . وهذا الامر عندنا اهم من الامرين السابقين لانه تهذيب اخلاق البشر وتطهير رقع الارض من الاسافلة وهمجيتها . وليس يساوي هذه عندنا شيء غير بث روح العدل والشهامة في نفوس الاقوياء ليعرفوا ما يجب عليهم ازاء الناس والامة التي تتركهم يجمعون ثروتهم منها . فكمال العمل الاجتماعي اذاً انما هو في تقوية نفوس الضعفاء واضعاف نفوس الاقوياء لتلتقي الفريقان ويتساويا امام الله والناس . وهذه نفس الروح التي دعا يسوع في حياته الجليلة .

ولقد لم يعد يسوع في العصر الاخير قوم متحمسون يتأثرون اثره بحماس ويقتفون خطاه القديمة ووقفوا افراحهم وحياتهم لمحاربة الفساد الذي حارب به يسوع بحياته كل حياته . ولقد اصبح لهم في اوروبا من القوة والسلطان ما ارجفوا به العروش والقصور وصرفوا الى الشعب وضعفاء الامم قسماً عظيماً من القوات والخيرات والسلطات التي كانت في ايدي الطبقات القوية . وهذه السنوات الاخيرة تحمل لهم في كل يوم فتحاً جديداً وتقدماً عظيماً . ولا ريب ان القارئ قد علم انا نعني بهؤلاء القوم جماعة الاشتراكيين . الا ان هؤلاء القوم قد اخطأوا خطأً عظيماً مسوقين اليه بمبادئ الغلاة منهم . ونريد بهذا الخطأ تركهم الفكرة الدينية . قال رينان الذي كان في حياته من خصومهم في كتابه هذا ما نصه وهو بيان « ان مبدأ ملكوت الله هو اعظم المبادئ المحركة الى طلب الاصلاح في كل مكان الى ما شاء الله . اما الاشتراكيون الذين يطلبون اصلاح الارض اليوم فانهم يقولون عاجزين عن انفاذ اصلاحهم ما لم يلجأوا الى افكار يسوع نفسها وتعاليمه . فانهم يطلبون بناء على مبدأ مادي ضيق امراً مستحيلاً وهو جعل جميع الناس سعداء ولذلك لا ينجحون وانما ينجحون متى جعلوا قواعد المسيح وهي ابتغاء اتم صورة للكمال في الارض لا خيرات الارض . وهذا المبدأ يوجب على طالبي اصلاح الارض التنازل عنها وعن خيراتها » « الباب الرابع الصفحة ٣٣ » وقال في كتاب اعمال الرسل في اثناء كلامه على جمعية الرسل والمسيحيين الاولين « وما اشد الشبه بين هذه الجمعية وبعض المبادئ الاشتراكية التي قامت في هذا العصر . ولكن الاشتراكية المسيحية كانت مؤسسة على عاطفة دينية واما الاشتراكية العصرية فهي منفصلة عن هذه العاطفة . وظاهر كالشمس الضحى ان الجمعية التي تقدم قواعدها للناس مالاً ولا ينتظرون منها رتقاً في سبيل هذا المال المادي وضميره

فيها ان العمل الذي يعملونه في معاملها لا يمكن ان يُبنى الا على عاطفة دينية توجب على الانسان انكار ذاته الى هذا الحد قياماً بواجبات دينية »

وتلك سفينتنا من اشتغالنا بهذا الكتاب بصرف النظر عن المسألة الدينية كل الاشتغال باساس المسائل الاجتماعية

الى هنا كان كلامنا عن المسألة الاجتماعية فلنتكلم الآن عن المسألة الدينية

وكل ما نقوله في هذه المسألة اننا لا ندخل فيها ابداً . فانما ما عقدنا هذا الكتاب لاثباتها ونفيها لان الاثبات والنفي فيها من باب تطلب الظن لذاته . ونحن قد صرحنا غير مرة انما نعرب هذا الكتاب لا لغرض تاريخي اجتماعي

على اننا رغبة في ان يكون الاخلاص التام رائدنا في ما نسطره في هذه المقدمة احببنا ان لا نغفل الجواب على الاعتراضات التي يعترض بها على هذا الكتاب ونحن نذكرها هنا واحدة واحدة

اولاً — قولهم ان تعريب هذا الكتاب يشكك المسيحيين في لاهوت المسيح . وانه يجب عدم البحث في هذه المسائل

والجواب على هذا القول نبسطه ثانية وهو اننا لا نعرض لهذه المسألة قطعياً . لانها عندنا فرع والمسألة الاجتماعية والمبادئ الانجيلية اصل . وقد صرحنا بمثل هذا القول في « اورشليم الجديدة » وفي الخطبة على الجبل عند ردنا فيها على الذين اتهموا « الجامعة » اذا راموا اتهامها به في جريدة البشير التي يطبعها اليسوعيون في بيروت ومجلة المباحث التي تطبع في الاسكندرية . ونحن نقول بكل حرية ان الخوف من البحث في حياة المسيح خوف في غير محله اللهم الا اذا كان الخائفون من ذلك يعتقدون بوهن الموضوع ويخشون عاقبته . اذ ما الباعث على هذا الخوف اذا كان الموضوع قوياً يحتمل كل نقد وجدال ويخرج منه صافياً نقياً خروج الذهب من النار كما خرجت روح يسوع من نار رنان (١) . ثم اي علاقة بين لاهوت المسيح وبين البحث والنظر العقلي . فان هذه المسألة فوق العقل بدرجات . وقد قال العالم المؤرخ الاب فوازي صاحب كتاب « الانجيل والكنيسة » الذي منعت الكنيسة قراءة كتبه في هذا العام ان مسألة لاهوت المسيح لا تدرك الا بقوة القوة الغير العقلية التي يدرك بها الخالق سبحانه .

(١) راجع فصل [illegible] في الباب الرابع من هذا [illegible]

فاي ضرر في ان يضع الباحث في تاريخ يسوع هذه المسألة خارج البحث والعقل معاً . نحن نعم انه لا ضرر من ذلك قطعياً . واذا قيل ان ذلك شك فالشك كما يقول « العارفون بالله » اول درجة من درجات الايمان . والله ليدهشنا تعب الوعاظ والآباء في حملاتهم على الجامعة في مسألة لا تجادل فيها الجامعة بدلاً من ان يساعدوها على ما تدعو اليه من محاربة الاثرة في البشر والفساد الاجتماعي والشراهة والدعوة الى الرجوع الى روح يسوع نفسها . فان الدين في الارض الآن لا خطر عليه من الباحثين في روح يسوع وحياتها ومعرفة مبادئها . فان هذا يجدد الدين ويحييه ويقوي الايمان في العالم . وانما الخطر الحقيقي هو في المبادئ المادية التي تهدم الروح الديني وموجديه حالاً والمبادئ المادية التي تتخذ آلة ووسيلة للمصالح المادية . (الخطر الحقيقي في الكلام الذي تقدم في الصفحة ٦ وهو قول القائل ان يد الله ان تعرض وكل) فبدلاً ان تصرفوا قواكم عبثاً في مصادمة من هم في جانبكم اصرفوها في مقاومة عدوكم هذا . فان الخطر من هذا العدو ليس واقعاً على لاهوت المسيح فقط بل على كل شيء . على الله والدنيا والاخرة والاديان كلها والارض والسماء . اما يسوع فلا يخافه الا رحمة منه . فلن نسمح لكم بترك المسائل الكلية والتمسك بمسألة جزئية لا ينازعكم احد فيها . نحن لا نقول ذلك . اللهم الا ان يكون لكم مصلحة خصوصية فيه . كالخوف مثلاً من مبادئ يسوع الحقيقية لانها حاربت هي والمبادئ المالية التي يحبها تلاميذه الاعزاء على طرفي نقيض

اذاً فمصدر الخطر ليس في البحث في تاريخ المسيح بحثاً دينياً بل في التيار المادي الذي يجحد كل شيء حتى الله . هذا الجحود هو المبدأ الاول . وكل سبب الفلاسفة وتبنته الصفات التي يعطيها المؤمنون له خصوصاً القدرة على كل شيء التي هي ام المسائل كلها فقد صارت مسألة لاهوت المسيح ابسط امراً . لان قدرة الله على كل شيء يمكن ان تعمل كل شيء . وحينئذ يصح قول غالو وباك في كتابه « روح المسيحية » : ماذا يمنعنا من الاعتقاد بان الله الذي هو شمس الوجود قد صدر عنه شعاع نور الى الارض فتكونت منه نفس يسوع . هل الله يعجز عن ذلك . فلا بد من هذا بعد وصفنا الاجلاء انا لا ننازعهم في هذا الامر اذا كانوا يفهمونه كما نفهمه و يفهمه جمهور العقلاء

ثم نقول بعد هذا ان المسألة الدينية في الشرق مسألة اجتماعية . لانه كما قال منذ الاتصالات المسيو ... ولكنه بالنظر خارجية ورسالة في مجلس النواب حين دفاعه عن رهبانيات الشرق كل طائفة في الشرق تعتبر الدين من اجل جامعتها وتعلق به آمالها في المستقبل . فكان في ... الدين

فيما يكون كذب يحاول آمالنا

فلما ان ذكرنا هذا الاعتراض هنا يدل على الحرية والاخلاص الذي اردنا ايراده على هذا الموضوع . وقبل كل شيء نحصر هذا الموضوع في مركزه الحقيقي فنقول ان هذا الاعتراض لا يصح الا في قطر واحد بيننا وهو قطر الشام . اما القطر المصري والقطر الاميركي فلا شبه بينهما وبين قطر الشام في هذا الموضوع . فالاعتراض اذاً مقصور على طوائف الشام

ثم بعد هذه المقدمة التمهيدية ننظر الى مقدمة الاعتراض لنرى هل هي صحيحة لنأخذ النتيجة التي استخرجت منها . فنجد انها مبنية على اساس فاسد اي ان الذي يحارب الدين ويحاربه يضر بتلك الطوائف اذ هي جامعتها الوحيدة ورباطها الوحيد . وهذا الخطأ من قبل وحدة المبادئ القوية التي مبادئ يسوع والانجيل والدعوة الى الاخوة التي خلفها وراءه له لا اساس ولا حقيقة . واذا كانوا قد اصبحوا يعتمدون مبادئ الانجيل نفسها حتى على المذاهب والطوائف فاعتبروا الآن اين اصبحنا من الدين المسيحي ؟ وبعد هذا الحائل ننظر في القضية نظراً عاماً . فنستحسن من وجوه ما ذكروه عن وجوب مراعاة مصالح الطوائف في جميع علائقها . ونقول هذا بكل حرية حتى لاولي الامر انفسهم اذ لا شيء يقوم لدى الامم مقام الحرية والراحة والعدل والامن التي هي من حق كل انسان وكل جمهور وليس تحت قبة السماء احد قادراً على ان يسلبهم هذا الحق [illegible] . ونكرر ان الطوائف لا تستفيد شيئاً اذا زادت عدد [illegible] . ان [illegible] وآمال كل شعب وكل امة لا شعباً واحداً فقط ولكننا لا نطلق ان تكون الامة [illegible] هؤلاء الخاصة انفسهم [illegible] . وهذا امر ظاهر كل الظهور . فان الامة ليست فقط افراداً منها بل مجموع الافراد اجمالاً . وكل فرد من افراد الامة كبيراً او صغيراً غنياً او فقيراً مساوٍ للفرد الآخر في الحقوق الطائفية الصورية حسب المبادئ الانجيلية . والعناية بالضعفاء والفقراء والضعفاء مقدمة في شريعة يسوع على كل عناية . وذلك لا يوجد [illegible] التي تتعب وتعمل وتخدم وتحمل على ظهورها اعباء الدنيا كلها . ومع هذا فانك تجد في كل طائفة بضعة افراد مستأثرين بالنفوذ والسيادة والسلطان يتصرفون بالاملاك الطائفية واوقافها وارزاقها وجميع شؤونها تصرف المالك في ملكه والشعب كالانعام السائمة [illegible] خاضع ذليل لدى مغتصبيه . ونائب هذا الشعب [illegible] الذي يقول ان [illegible]

لزعامته يتقرب من الاغنياء والكبراء طمعاً في مالهم ويهمل باقي الامة اذ لا يرجو فائدة منهم . واذا عرفنا ذلك يسوغ لنا ان نرى هذه الحالة من الامور التي تجري في كل يوم ، وحينئذ يقوم فلان لاظهار مساعدته الحال وتذكيرهم بمبادئه ، يحسبون ان هذا مضر بالطوائف ، والحقيقة انه مضر برؤساء الطوائف وزعمائها الذين يقصدون دفعها لانه يفتح عيون الطوائف ويريها حقوقها ويحثها ان تطالب بها

فاذا كان المقصود من قولهم : ان الدين جامعة الامة وسياجها ، هو ان تكون هذه الجامعة لمنفعة بضعة افراد في الامة فقط على ما تقدم فنحن لا نتردد في ان نصرح باننا نحن نبغض هذه الجامعة لانها تضر وتغش الامة . والضرر والغش شر سواء كان من الغريب او القريب . والضرر الذي يكون مصدره من هذه الجامعة اضعاف ذلك لان الامة كثيراً ما تكون ناعقة وراء بضعة من افرادها يتصرفون بها بحسب اهوائهم ومصالحهم . واما اذا كان المقصود من قولهم هذا جامعة مبنية على مبادئ يسوغ تسميتها اسمى جامعة تجمع وترضي الجميع وتخدم الجميع فلا اعتراض عليها

قلنا لا اعتراض لنا على هذه الجامعة وقد اردنا بذلك انه لا اعتراض لنا عليها من هذا الوجه . ولكن لنا اعتراض عليها من وجه آخر

وهذا الاعتراض هو رغبتنا في ان لا تكون الجامعة الدينية واسطة للبغض والنفار بين العناصر المختلفة . فان الانسانية تجب ان لا تقبل العواطف والمبادئ التي تقرب البعض بدل الحب والشقاق بدل الوفاق . وليست هذه المسألة عندنا مسألة عواطف ومبادئ فقط بل هي مسألة مصالح ايضاً . فان اتفاقها وائتلافها وتعاونها على خطة واحدة مشتركة اساس تقدمها وارتقائها . وبدون ذلك تبقى في وهدة الضعف والشقاء الى الابد . فاذا كانت الجامعة الدينية المذكورة هي الجامعة التي كان يدعو اليها يسوع المبني على الحق والعدل بين جميع طبقات الامة وعناصرها ، وتنفر كل انسان ولا نطلب منه غير الاخلاص وصفاء الضمير ورقة العواطف ونعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فهي هذه الجامعة . واذا كانت بخلاف ذلك فلا بد من خلافنا وردها وازالتها اذ ما بني على غير الحق والعدل فهو منهدم

نعم ان الحق والعدل قبل كل شيء وفوق كل شيء . ولا يقوم شيء ولا يرتفع في الارض بدونهما لان الباني على ما عداهما كالباني على الرمال . قال المسيو [illegible] احد [illegible] في خطبة القاها بالمجلس من الشيوخ والاساقفة : اني احب وطني ولكني احب العدل والآداب والحق والعلم فوقه . بل [illegible] في خدمة [illegible]

فضيعوا [illegible] هذا التعليم . فانه كما يمنع الفكر وحرية الشعور والاخلاص والطهارة للمنتسب القريب حتى الآن [illegible] الاحزاب [illegible] وطنه ووطن دينه . استعار انه لم يكن له [illegible] لان هذا هو دينه [illegible] ما اذا كان لم تجمع الف مرة من [illegible] الى [illegible] الامة [illegible] لان الجامعة الدينية ضرورية لها [illegible] الآراء [illegible] مستقلين عنها . من [illegible] ما اذا كان [illegible] لم يقطع دماً [illegible] هذا الاعتراض [illegible] بالعدل واما [illegible] الفكر والحق او [illegible] الفكر خارج اسوار الصدور [illegible] في [illegible] الفكر [illegible] ولو كانت [illegible] والارض [illegible] والامة والانسانية الحق والعدل [illegible] الخصوصية [illegible] الاوروبية [illegible]

[illegible] هذه مبادئ [illegible] جامعة الامة [illegible] لا [illegible] عرى الجهالة والخرافة [illegible] الاعراض [illegible] في [illegible] في مقدمة الامة [illegible] يعتقدون حقيقة [illegible] عنها ولا [illegible] المبادئ التي ترقي الامم [illegible] حياتها ونشاطها [illegible] لا تقدم ولا ارتقاء . ذلك لانها مبادئ تعلي [illegible] الامة [illegible] الجديد [illegible] الطوائف [illegible] لا [illegible] في [illegible] على [illegible] من [illegible] عنها [illegible] [illegible] الامم [illegible] الامة [illegible] جديد [illegible] الفكر [illegible] في التقدم البشري [illegible] لا [illegible] في الشرق [illegible] جامعة العقل والعدل والحق [illegible] هذه المبادئ [illegible] الاخلاق غير مقصور على [illegible] الطوائف [illegible] في هذا الاختلال [illegible] الطائفة [illegible] لان هذا الاختلال [illegible] الاختلال [illegible] وتقاليدها . [illegible] الاجتماعية من هذا الاختلال [illegible] الطوائف الاسلامية [illegible] تكون الحق [illegible] الامم [illegible] الاختلال [illegible] الاجتماعي [illegible] الفكر والعدل [illegible] بل هي

والعقلاء يكونون حينئذ [illegible] الا في [illegible]

ان [illegible] في العصور [illegible] الشعوب في الدنيا كلها [illegible] الحقوق [illegible] فان هذه [illegible] الاقسام [illegible] في كل امة [illegible] الشعوب [illegible] هذه الاقسام والبغض [illegible] العادات الخاصة والمذاهب المتعددة [illegible] وحكوماتها [illegible] الحكومات [illegible] لا [illegible] ولا يكون من جنسهم [illegible] بعض [illegible] الشعب [illegible] في تحصيل [illegible] بعض [illegible] في الحكومات والافراد [illegible] فان نحن في الشرق من [illegible] بعضا [illegible] على ان [illegible] كل [illegible] في الحكومات [illegible] ولذلك [illegible] الاصلاح الاجتماعي على الاصلاح السياسي [illegible] الاصلاح الاجتماعي [illegible] السياسي [illegible] والاصلاح الاجتماعي [illegible] هذا الاصلاح [illegible] لان السياسة [illegible]

ثم من يتضح ان القول بحل الجامعة الدينية بهذه المبادئ قول مردود من اعظم وجوهه وهو النفع الذي من اجله انشئت تلك الجامعة . ذلك لان النفع نفعان . نفع وقتي ونفع مطلق عام دائم . ونحن لانجهل نفع الجامعة الدينية الوقتي وفائدتها في جمع الامم في بعض الظروف الخصوصية . ولكل واحد منكم ان يبقى خادماً جامعته وعاملاً لنفع قومه بها . فليبق المسلم محباً الجامعة الاسلامية في وجه اوروبا كآلة سياسية يحاربها بها وان اضر ذلك بداخليته . وليبق النصراني متخذاً جامعته الدينية قوة له بين العناصر الاجنبية المزاحمة في بقعة نشأته ومراحاً له في البلاد الاسلامية التي يرى فيها ضيقاً وضغطاً وليبق الاسرائيلي متمسكاً بجامعته التي ربما كانت اقوى من الجامعتين السابقتين . وليبق كل واحد في حزبه ووسطه وقومه وطائفته يدفع عنها الشر الذي يرد عليها من غيرها ويجلب الخير لها . فان هذا امر طبيعي ضروري لاجدال فيه . ولكن هذا النفع الوقتي ليس شيئاً مذكوراً في جنب النفع المستقبل العمومي في الزمن الذي تسقط فيه الحواجز من بين الشعوب لاشتراك مصالحهم وبقاء عواطفهم وتقارب عقلائهم وتساعدهم على ازالة حواجزهم . والايام التي تقولون انها تحل الجامعة الدينية هي في الحقيقة تمهيد لهذا الزمن السعيد . فانتم تعملون الآن عملاً ضرورياً وهي تعمل للمستقبل عملاً ضرورياً . فاعملوا انتم في دائرتكم ودعوها تعمل في دائرتها . وكونوا على يقين من ان هذا العمل قد بدت آثاره والمحدق الشرقي يرى طلائع العاملين فيه منذ ثلاثين سنة حتى اليوم امتزج الغرب بالشرق امتزاجاً جديداً . فكل من لاحظ البث الجديد في العناصر المختلفة واشتراكها في الاعمال والآمال واتحاد اسباب الوداد بينها اتحاداً لا يكون الا بين الاخ واخيه تحقق ان العالم القديم قد بدأ يتهدم انهداماً . واين ذهبت خرافات الآباء والاجداد وآثار العصور القديمة ؟ اين ذهب البغض والنفار والعدوان من بين الامم ؟ حقاً انك يا ارض مصر الكريمة فانك تحملين عجائب وغرائب . ان تربتك وردة الفلك من السماء قد اتخذت لنفسك بعد انفجار الماضي كساء على نور العلم وضياء التمدن وتطيب ثمر الحرية . ونبتت بالرحمة الثابتة بعد باقي كرامة من عصر العتيق . ولكن الاقدار تحالفت فتكل العلماء رجاءً وصلاح الملك والامة كي يكثر فيك الذين يحكمون عقلهم في عوامهم ولا يتركون محلاً للتفريق بينهم . وحينئذ يستفيد قومك وعلى الخصوص الضعفاء من ثمار هذه الدعوة الحقيقية من انصارها اضعاف ما يستفيدونه من جامعاتهم الوقتية

خاتمة المقدمة

هذا ما اردنا بحثه في هذه المقدمة . وبقي لنا ان نعيد الكلام لنبين للقارئ الى

الكتب نفسه . الا انه خطر لنا قبل ذلك ان نهدي هذا الكتاب الى من يحمل اهداؤه اليه جرأة على عادة بعض المؤلفين . وبقينا نفكر في ذلك يومين . وفي اليوم الثالث مررنا اتفاقاً في احد الشوارع من امام منزل لا نعرفه . فبصرنا في بابه كهلاً جالساً بعظمة الى خوان وهو يدفع بيده بورقة الى جماعة فقراء امامه بين الرجال والنساء . ويكد ما مدّ يده بالورقة نحو امرأة منهم حتى اخذت هذه المسكينة كأن ذنباً تقمصها وما رفعت يديها الى عينيها وصارت تبكي بسكوت وهدوء بكاء يفتت القلوب . فلمع حينئذ في افكارنا شيء كالبرق وقلنا الى هؤلاء نهدي الكتاب . الى الذين كان يحبهم يسوع وصرف حياته في خدمتهم واتخذ تلامذته ورفاقه منهم ثم صار خلفاء تلامذته اليوم يحتقرونهم ويبتعدون عنهم

يا ايها الودعاء القلوب الاتقياء الضمائر المنكسرو النفوس الذين يسحقون بين تنازع البقاء بين البشر ويسقطون . يا ايها الضعفاء الذين تهملهم الحكومات والرؤساء ويتركونهم في الاسواق والشوارع يعانون العري والبرد والجوع . يا ملايين العمال المستخدمين الشرفاء الامناء الذين يعيشون بشرف واجتهاد من عرق جبينهم وغيرهم يجمع الثروات الواسعة من تعبهم ودمائهم وهو جالس على المقعد الوثير متكئ على بساط البطر والكسل والتبذير في الامور التافهة الباطلة . يا اهل الفكر الذين لا تكتفي نفوسهم بشهوات الارض ويتطلعون دائماً الى السماء نحو الفلك الواسع الجميل بحثاً عن عالم افضل من هذا العالم — اليكم نهدي هذا الكتاب وان كان اكثركم لا يقرأونه لانكم محرومون بين مشاق الحياة اليومية وفساد الاجتماع وانانية البشر ومطامعهم الحيوانية الدائمة من كوة منيرة مطلة على السماء حيث يرد النور والهواء النقي . فيه تجدون صورة الشخص الالهي الذي عاش عيشكم وتعب تعبكم ومرت في نفسه الكريمة الافكار المحزنة التي تمر كل يوم في نفوسكم . ايتها الحالات البشرية التي تملأ العالم كما تملأ الرمال شواطئ البحار والتي تستغرق الانسانية كلها الا اقلّ منها — لا اصلاح في الارض ولا اصلاح ولا مدنية حقيقية الا بالعود الى مبادئ يسوع وهو العناية بك قبل كل شيء لان فسادك لا يفسدك وحدك فقط بل يفسد الهيئة كلها معك ما فوقك وما تحتك . ولذلك تعود المدنية العصرية الى هذا المبدإ شيئاً فشيئاً . فتشددي عزمك وقوي نفسك وارفعي راسك فقد جاءت نوبتك . واذا كنت لا تزالين في الشرق ضعيفة مقهورة مكسورة الجناح فالغرب قد مرّ عليه قرن منذ الثورة الفرنسوية وهو يرفع رايتك . وهذه الراية ستنال اكليل النصر لا محالة فتصيرين حينئذ بالغة ان تطلبي ما فقد طال اهمالك . ولكن اذا كان من وظيفة خدمتك اعطاؤك هذا النشاط وهذه القوة لتنهضي وتحفظي حقوقك فمن وظيفتهم ايضاً ان

يحذرونك من العثرات في طريقك . فاذا انت فعلت لم الالتفات لتأديب ابنها الخرافات الكريهة فانها مضرة بك وبالهيئة الاجتماعية كلها . ومنهم اولئك خفض اهل المال ويغرونك باستغلال اموالهم كما استغلوا تعبك . ويقولون لك ان كل ذهب من ذهبهم مصبوغ بدمائك ودموعك وعرقك فمن حقك ان لا تحترمي هذا السلب القانوني . حتى تكلك الامور [illegible] ومركباتهم الفاخرة ومشيهم في الارض مرحا كأن الدنيا لهم وحدهم ان تبدي غيظا على الهيئة الاجتماعية التي تساعد هذا الشقاء والظلم في بعض ابنائها دون بعض وتتركهم يأكل بعضهم بعضا كالحيوانات الوحشية . ولكن يا اختي هذه العواطف لا تليق بك . [illegible] منها لانها اذا كانت من جهة تدعى (عدالة اجتماعية) كما يقولون فهي من جهة اخرى تدعى (حسدا وبغضا وثورة) . واذا قيل لك (١) ان هذا البغض والحسد امر ضروري لازم في حالتك الآن لانه يخلق القوة والنشاط ويكون [illegible] تعلمين انه يجب محاربة كل جامعة لا تقوم على العقل والعدل والحق فضلا عن ان البغض كريه قبيح دنيء اذا كان مبدءا . وما هو غرضك من هذا البغض والحسد يا ترى . هل ذلك رغبتك في ان تكوني مثلهم . الا ترين انك يمكنك ان تكوني افضل منهم وليس يلزمك لذلك غير الرجوع الى مبادئ يسوع نفسه . ان هؤلاء الاشخاص الذين يحسدون دماءك ابنها الانسانية ويعيشون من تعبك وعرقك وان كانوا على طريقة قايين . وهم يلقون من المتاعب والشقاء والمصائب في هذه الحياة مثل ما تلقين . ولا يغرنك الظاهر فانك في كوخك الحقير [illegible] واحسن حالا . ذلك لانك لا [illegible] شيئا لانك لا تخشين ان تخسري شيئا وهم يخشون كل شيء . واسمعي ما يقوله [illegible] فيهم (٢) [illegible] لانهم لا يحصلون على الوجاهة في الدولة والمال الا ببذل شيء من الشرف وخسارة الصحة ودوس الضمير وذلة في [illegible] افهل هذا مما يستحق الحسد ! انهم مساكين مثلك . وكما انك ضعيفة من جهة فهم ضعفاء من جهة الخوف على المال الذي [illegible] واذا [illegible] صبورا على ضعفهم [illegible] العالم التي [illegible] انهم في هذا العالم الجديد في الحياة اقدم من ان

(١) كلام مشهور لجان جوريس زعيم الاشتراكيين في فرنسا

(٢) [illegible]

يسيروا خطوة وحدهم . فالشفقة اذاً عليهم وعلى ضعفهم ومتاعبهم بدل ان نحسدهم . وبما ان مبادئ يسوع تعطيك قوة وقدرة على ان تكوني فوقهم فالمبادئ العليا والاشتراكيين . اعني الشريعة الطبيعية الخير والحق واحتقار المتاع المادي متى كانت بمقتضى دوس الفقير . فهي الاخلاص والسذاجة ونقاء الباطن والصداقة والحرية والخير والحق والعدل والعقل والقناعة تقابل بالعيشة الروحية فوق كل شيء مادي في الارض كما كان يفعلها يسوع . وحينئذ تكون الانسانية التي في باطنك ارقى من الانسانية التي فيهم وتجدين في هذا العيش الساذج الذي تطلبين من الراحة النفسية والسعادة الحقيقية ما لا يجدونه هم في ثروات الدنيا كلها . لان الثروة كماء الملح كلما شرب الانسان منها ازداد عطشاً وتعباً وغلة . وهذا معنى قولهم اجراء الخير منه وفيه . ولا تقولي ان هذه الراحة والسعادة وهمية بل تعزية العاجز وتسلية القاصر فانك بذلك تحكمين بنفسك على نفسك . لان من يقول هذا القول يدل على فساد قلبه وفناء طبيعته لكونه عاجزاً عن ان يفهم تلك الحالة . فان هذه المسألة مسألة شعور وقلب لا مسألة منطق وعقل . ومن فقد هذا الشعور يفقد اللذة الحقيقية والراحة الحقيقية في الارض الى الابد . وحينئذ لا دواء له غير رحمة الله به او رجوعه الى مهد امه لتربي نفسه تربية جديدة وتصلح طبيعته . فتمسكي اذاً بهذه القوة القلبية التي كانت ليسوع والتي كان يحتقر بها كل امور المادة ولا يعبأ الا بامور الفكر والروح . وهذه هي الحقيقة الابدية التي لا تزول مع تقلبات الاجيال والاحوال حتى ولو اكتشف البشر في المستقبل طرق توزيع خيرات الارض توزيعاً عادلاً تاماً يبطل به الفساد الذي ينشأ في الطبقات العليا بكثرة الثروة فيها كثرة فوق الحاجة والفساد الذي ينشأ في الطبقات السفلى بقلتها فيها عن الحاجة . وهذا هو السبب في تفضيلنا مبادئه على مبادئ الاشتراكيين وشرح صورتها امامك واهدائها اليك . واذا كنت ترتابين الآن في هذه الحقيقة فمتى حان اجلك بعد عمر طويل ستتحققين وانت على فراش الموت يوم لا ينفع الانسان شيء ان هذا هو الحق بعينه . واذا كنت قد عملت به في حياتك فتموتين مستريحة لتذكرك ان حياتك كانت نفعاً للناس الضعفاء لا حملاً ثقيلاً عليهم ومثالاً لمن يأتي بعدك ليكون منهم لا عبئاً عليهم .

الفيلسوف ارنست رنان

الباب الثاني

الفيلسوف ارنست رنان

ترجمته ورأي مشاهير العصر فيه

ترجمة الفيلسوف رنان

ولد « ارنست رنان » في « تريجيه » من اعمال فرنسا في ٢٧ فبراير من عام ١٨٢٦ . وكان ابوه ربانًا لاحدى السفن التجارية وهو من مقاطعة بريطانيا . واما امه فانها كانت غاسكونية ولطالما كثيرًا ما قال رنان عن نفسه ان هذا المزج بين البريطانية والغاسكونية انشأ فيه من جهة الاول قوة التصوُّر والتأمل ومن جهة الثاني قوة الصبر على الحياة والارتياح الى المعيشة كيفما كانت

وقد توفي ابو رنان وعمره خمس سنوات فربته امه بمساعدة بعض الكهنة وهي تنوي ادخاله في سلك الاكليروس . فتلقى رنان دروسه الابتدائية في دير اكليريكي في بلده وقد مال في صغره الى الدخول في هذا السلك رغبةً في الانقطاع الى العلم والفضيلة . وبقي على هذه الرغبة حتى بلغ السنة الخامسة

عشرة من العمر فانتقل الى دير سان نيقولا في شردونه لاتمام دروسه فتغيرت افكاره هناك لما كان يجده حوله احياناً من قلة الاحترام للمسائل الدينية كما قال المسيو رتو الذي نعتمد عليه في هذه الترجمة . ومنذ هذا الحين تزعزع ايمانه . ثم انتقل في سنة ١٨٤٢ الى دير ايسي لتلقي الفلسفة فطالع هناك مؤلفات الفيلسوفين الالمانيين هجل وهردر فاجهزت هذه المطالعة على ايمانه وصار يرى حياة العالم عبارة عن نمو باطني للكون كما ان نمو الشجرة وحياتها انما هو عبارة عن نموها الباطني . وفي سنة ١٨٤٤ اخذ يدرس اللغات الشرقية ثم تعمق فيها حتى صار يعتقد انه لا يمكن ان تكون التوراة كتاباً منزلاً لما رآه فيها من الاغلاط التاريخية . فعدل منذ هذا الحين عن الانخراط في السلك الاكليريكي وقام حينئذٍ في نفسه نزاع شديد بين النذر الذي نذره من الانخراط في هذا السلك وبين ما حسبه حقيقة . وكانت له اخت تدعى هنريت رنان وكانت سامية المدارك قوية العقل وهي اكبر سناً منه باثنتي عشرة سنة فاخذت تخمد ثورة فكر اخيها وتهون عليه قطع ما كان بينه وبين رجال الاكليروس من الصلات . وزار رنان في ذات يوم صديقه الفيلسوف جول سيمون وهو لابس اللباس الاكليريكي واطلعه على ما قام في نفسه من ترك الاعتقاد القديم والعدول عن الانخراط في سلك رجال الدين . قال جول سيمون في بعض كتبه : وقد بذلت جهدي في اثناء رنان عن عزمه فكان يجيبني انه لا يستطيع ذلك لان الطائر الذي كان في نفسه قد طار منها . وهكذا نبذ رنان نذره وخلع الثوب الاكليريكي

ولكن رنان لم يخلع الثوب الاكليريكي حتى لبس ثوب الضجر من الحياة واليأس من الوجود لانه لم يكن يجد لها غرضاً . ولا غرابة في ذلك فان الحالة

التي ألفتها نفسه قد ألبسته هذا الثوب فجعلوا حسكه وشوكه . فمن حسن حظه تعرّف في المدرسة التي كان يدرس فيها بشاب يدعى برتلو وهو الموسيو برتلو الكيماوي الفرنسوي المشهور الذي جعل منذ عامين عضواً للاكادمية الفرنسوية وكان من قبل وزيراً للشؤون الخارجية الفرنسوية . فعقد رنان مع هذا الشاب صداقة قوية العرى . وكان برتلو منصرفاً الى العلم الحسي والوضعي فأثرت معاشرته وافكاره في رنان تأثيراً شديداً فصار رنان يعتقد اعتقاده في نفع هذا العلم ومقدرته على اصلاح الهيئة الاجتماعية وتحسين احوال البشر . فصرف افكاره الى هذا الامر قيماً بهذه الخدمة فكأنّ برتلو بثّ فيه روح دين جديد . ومنذ ذلك الحين اخذ رنان بالاشتغال بالعلم وصار يجد لحياته غرضاً ومقصداً

في سنة ١٨٤٨ قدّم لجمعية الفنون كتابه المعنون « تاريخ اللغات السامية » فطارت به شهرة رنان وعُدّ مستشرقاً عظيماً . ثم كتب في سنة ١٨٤٩ كتابه « مستقبل العلم » غير ان هذا الكتاب لم يُنشر الا في سنة ١٨٩٠ . وكان من قوله في هذين الكتابين ان العالم ينمو بنفسه من نفسه وهو سائر الى الكمال سيراً تدريجياً . وما هو ذلك الكمال ؟ هو قوة الفكر والفضيلة وطلب الحقيقة والخير لذاتهما . فعلى العلماء والفلاسفة الذين هم نخبة الانسانية ان يبذلوا قصارى جهدهم في تعليم الحقيقة للناس ورفع بقية الانسانية اليهم فان هذا الامر مطلوب منهم كما هو مطلوب من رجال الدين . ومن يقوم به منهم فان عمله يكون عبارة عن صلاة او افضل منها

وفي سنة ١٨٤٩ عهد الى رنان بمهمة علمية في ايطاليا فساح اليها وشاهد عظائم فنونها الجميلة فتشربت نفسه حب الجمال . وفي عام ١٨٥٢ نشر كتابه « ابن رشد ومبادئه » وموضوعه اثبات ان الاضطهاد الديني هو الذي اوقف في الاندلس

والعالم الاسلامي مسير التمدن ومنع الارتقاء العلمي والفلسفي الذي كان قريب الحدوث فيها . وكان غرضه من هذا ان يظهر للحكومات والسلطات الدينية ما ينشأ عن اضطهاد الدين للعلم ليكون عبرة لها فلا تضطهد العلم في اوربا فيحول بها ما حال عن تقدمها

واقترن رنان في عام ١٨٥٦ بمدموازل شيفر حفيدة المصور آري شيفر فانبهت فيه عواطف الحب وانعكست الى نفسه صورة الجمال الانثوي الذي اتخذه رفيقاً له فاحياها وملأها تصورات وتأملات عذبة . فصار قلم رنان بعد هذا الزواج كأنه قد غط في كأس عسل . وقد حدث مثل ذلك لجان جاك روسو بل اشد منه فانه في بعض ادوار عمره وهو الدور الذي تشتد فيه زقزقة الطيور وتلمع جنح الفراش في الحقول — اي دور الربيع الانساني — صار يحس بنار في داخله وبرق في عينيه وجريان في قلمه فاذا كتب خط سحراً وابرز تبراً . وقد كتب في تلك المدة الغريبة كتابه « هيلويز الجديدة » وكله رسائل حبية فلسفية فكان ابلغ كتبه . وبعد ذلك خمدت تلك الثورة وانطفأت تلك النار فذهبت بذهابها تلك البلاغة التي كانت تتصعد عنها

اما رنان فلم تخمد ناره قبل ابرازه الكتاب الذي طير صيته في جميع اقطار الارض وجعله اوسع علماء عصره شهرة

وهذا الكتاب هو « تاريخ اصل الديانة المسيحية » وهو خمسة اقسام (١) تاريخ حياة المسيح (٢) تاريخ اعمال الرسل (٣) تاريخ حياة القديس بولس (٤) المسيح الدجال (٥) مرقس اوريليوس . وكل واحد من هذه الاقسام كتاب ضخم . وامامنا الآن القسم الاول منه وهو تاريخ حياة المسيح وعدد صفحاته ٥٤٩ صفحة كبيرة ما عدا مقدماته الطويلة

ولا ريب في ان هذا القسم اهمّ اقسام الكتاب كله · وقد كتبه رنان في سياحة له في فلسطين وسوريا ولبنان بين سنة ١٨٦٠ و ١٨٦١ وكان مرسلاً اليها للتنقيب عن آثار الفينيقيين وله فيها كتاب عنوانه سياحة في فينيقيه · وبعد عودته من فينيقية جُعل استاذاً للغات العبرانية والكلدانية والسريانية في مدرسة كوليج دي فرانس · غير انه بين كان يلقي فيها اول دروسه لقب السيد المسيح في كلامه عنه « بالانسان الذي لا مثيل له » فقامت في الجلسة قيامة انصار الاكليروس وخصومهم بعض معه وبعض عليه فقررت الحكومة الامبراطورية الغاء هذا الدرس فترك رنان تلك المدرسة · وقد تلا هذا الحادث ظهور كتاب تاريخ المسيح في عالم الادب في سنة ١٨٦٣ فانفجرت على مؤلفه ينابيع حارة وينابيع باردة

اما الينابيع الحارة فانها انفجرت من نفوس جميع رجال الدين ولا سيما المتطرفين منهم وجميع المتدينين يقتدون بهم او يمشون من ورائهم · فسلقه هذا الحزب بالسنة حداد وانهالوا عليه في الجرائد والمجلات بالشتم والسب وحرموه من الكنيسة ولعنوا كل من يقرأ كتبه · وقد اتهمه بعضهم بانه ما كتب ذلك الكتاب الا في مقابلة مليوني فرنك قبضها من بيت روتشيلد الاسرائيلي · ولكن اصدقاء رنان الذين يعرفون حبه المجرد للفقر · يحسبونه حقيقة ينفون عنه هذه التهمة السوداء · وسنشير في ما يلي الى الردود التي كان رنان يرد بها على الطاعنين عليه

واما الينابيع الباردة فانها انفجرت من نفوس الاسرائيليين في جميع اقطار الارض لان ذلك الكتاب يعزو تمدن العالم اليهم ويقول بخروج المسيحية منهم وان كان يثبت ان آدابها العليا لم تشتق من آدابهم

ثم حدثت الحرب بين فرنسا والمانيا في سنة ١٨٧٠ فكان رنان من كارهيها وقد كتب يومئذ في « مجلة العالمين » الفرنسوية مقالة شبه فيها فرنسا والمانيا بالختين

في المدنية وقال ان من الجناية على التمدن ان نحاربها . وبعد ما شاهده رنان في هذه الحرب من آثار الهمجية البشرية في ساحة القتال ومن تمرد رجال «الكومون» في باريز وافضاء هذا التمرد الى حرب اهلية بين الفرنسويين جرت فيها الدماء انهاراً تزعزعت ثقته بسير العالم الى محجة الكمال وكره الديموقراطية وشؤونها لانها ادّت بوطنها الى ذلك الويل . وصار يرى من الواجب على كل امة ان يكون فيها نخبة من رجال الفضل والعقل لادارة شؤونها بقسط واعتدال فلا يكون للفساد والرشوة من سبيل الى نفوسهم . واخذ يتساءل كثيراً هل ان العقل والعدل يسودان في هذه الارض في مستقبل الزمان ؟ ام يتوصل المرء فقط الى حالة تصبح فيها سواد الناس عاجزين عن الاضرار بكبارهم لما يضعه فيهم هؤلاء الكبار من الشكيمة بواسطة معارفهم العلمية . وقد نشر رنان كتاباً في هذا الموضوع عنوانه «مباحثات فلسفية»

وبعد ذلك قامت الجمهورية الثالثة بعد حرب السبعين واعادته الى كرسي التعليم في كوليج دي فرانس وجعلته مديراً لهذه المدرسة . وفي سنة ١٨٧٩ عين عضواً للاكاذيمية الفرنسوية . فعاد رنان ورضي عن الديموقراطية بعض الرضى . وفي سنة ١٨٩٢ اتم نشر كتابه «تاريخ شعب اسرائيل» وهو خمسة اجزاء وصل بها تاريخ المسيح بتاريخ نشأة بني اسرائيل فكان هذان الكتابان تاريخاً شاملاً للحوادث الاسرائيلية من اولها الى ما بعد انتشار الديانة المسيحية

وقد عمّر رنان نحو سبعين عاماً . وكان في آخر ايامه رزيناً هادئاً مع شيء من التهكم وعدم المبالاة بآراء الناس . وبقي على هذا الهدوء والرزانة مع ما انتابه من المرض والالم في آخر حياته . وقد قال وهو على فراش الموت «اني اموت سعيداً لاني اتممت عملي . وما الموت الا ناموس طبيعي . فلنخضع لناموس الطبيعة»

الاولى الاختراع والاكتشاف وهي في هذا الامر شريكة العقل الكبير ووريثته ، والثانية نقل المطلوبات الدفاعية للضعيف بالاقناع وتجويد الرفقة بمعالجتهم بها . والثالثة بث روح الشفقة والقوة والعزة ومكارم الاخلاق في نفوس الامم حتى يصير الضعفاء منها اقوياء فلا يطوفهم الاقوياء . وهذا الامر عندنا اهم من الامرين السابقين لانه مصلح اخلاق البشر ومطهر ريح الارض ومرقي الانسانية ومعزيها . وليس يساوي منفعته عندنا شيء غير بث روح العدل والشهامة في نفوس الاقوياء ليعرفوا ما يجب عليهم الى الناس والامة التي تتركهم يجمعون ثروتهم منها . فكمال العمل الاجتماعي اذاً القاوي تقوية نفوس الضعفاء واضعاف نفوس الاقوياء ليلتقي الفريقان ويتساويا امام الشرع والناس . وهذه نفس الروح التي دعا اليها يسوع في حياته الجليلة .

ولقد قام بعد يسوع في العصر الاخير قوم متحمسون تبدو فيهم الحماسة ومتقنعون خصوصاً الضعفاء وقاموا قيامهم ومحاربة الفساد الذي حارب به يسوع جمعية اخوته . ولقد اصبح لهم في اوروبا من القوة والسلطان ما ارجفوا به العروش والقصور وصرفوا الى الشعب بتعضيد الامر قسماً عظيماً من القوات والحقوق والسلطات التي كانت في ايدي الطبقات القوية . وهذه السنوات الاخيرة تعطيهم في كل يوم فتحاً جديداً وتقدماً عظيماً . ولا ريب ان القارئ قد عرف اننا نعني بهؤلاء القوم جماعة الاشتراكيين . الا ان هؤلاء القوم قد اخطأوا خطأً عظيماً معرضين اليه ببعض الغلاة منهم . ونريد بهذا الخطأ تركهم الفكرة الدينية . قال رنان الذي كان في حياته من خصومهم في كتابه هذا ما نصه : « وسيبقى ابتداء ملكوت الله اعظم المبادئ تحريكاً الى طلب الاصلاح في كل مكان الى ما شاء الله . اما الاشتراكيون الذين يطلبون اصلاح الارض اليوم فانهم يقفون عاجزين عن انفاذ اصلاحهم ما لم يلتجئوا الى الافكار التي يسوع نفسها وعملوا بها . فانهم يطلبون بناء على مبدأ مادي غايته امراً مستحيلاً وهو جعل جميع الناس سعداء ولذلك لا يجمعون والذا يجمعون من تمسكها بقواعد المسيح وهي ابتغاء اعلى صورة للكمال في الارض لا خيرات الارض . وهذا المبدأ يوجب على طالبي اصلاح الارض التنازل عنها وعن خيراتها » (الباب الرابع الصفحة ٣٣) وقال في كتاب اعمال الرسل في الفصل كلامه على معيشة الرسل والمسيحيين الاولين : وهنا شبه غريب بين هذه الحالة وبعض المبادئ الاشتراكية التي قامت في هذا العصر . ولكن الاشتراكية المسيحية كانت مؤسسة على عاطفة دينية واما الاشتراكية العصرية فهي منفصلة عن هذه العاطفة . وظاهر انه لا يمكن الان ان الجمعية التي تقدم قانونها والاموال ولا ينتظرون منها رغداً على سبيل هذا المال الذي وضعوه

اقامة تمثال لرنان
في العام الماضي

ومنذ سنتين الف في فرنسا اصدقاء رنان ومريدوه لجنة لاقامة تمثال له في تريجيه مسقط رأسه . فنشرت اللجنة اعلاناً بغرضها بحيث جميع مشاهير الارض ليوردوا الاموال ورسائل الاشتراك من كل الجهات . وقد كان المشتركون فيها من كل الاحزاب العاقلة المتسامحة كاثوليك وانجيليين واسرائيليين وفلاسفة . وفي جملتهم المؤرخ ممسن اعظم علماء الالمان والعالم جبرائيل مونود اعظم علماء البروتستانت في فرنسا والمسيو ريبو الكاثوليكي الذي امتاز في فرنسا بالعامين الاخيرين بالانتصار للحزب الاكليريكي صوناً لمبادئ الحرية والجمهورية وغيره من رؤساء الوزارات السابقين والمسيو والدك روسو المشهور . وكثيرون من علماء الارض من كل البلاد . وكلهم كتبوا الى اللجنة كتباً خلاصتها ان الانسانية وفرنسا يحق لهما ان تفتخرا بظهور رجل فيهما نزيه الاخلاق واسع العلم مترفع عن دنايا الارض مثل ارنست رنان . وقد جمعت اللجنة هذه الرسائل كلها في كتاب ضخم دعته « كتاب رنان الذهبي » لانه عبارة عن شهادة له من مئات من اكابر علماء الارض وعقلائهم بصفات علمية وفلسفية واخلاقية لم تنسب لغيره من عهد افلاطون . ولذلك دعوه « افلاطون المتأخرين »

وما قامت هذه الجلبة في فرنسا في العام الماضي نهض الحزب الاكليريكي لمقاومة الشارعين في اقامة التمثال فتصدى له الحزب الجمهوري . واصبح اسم رنان عبارة عن راية يتحارب الحزبان حولها . اما اهل الاعتدال فكانوا بين الحزبين يخففون من حدتهما . ومنهم جريدة الطان والدبا . فان جريدة الطان كانت تقول لها ان رنان الذي كان في حياته « رسول التسامح والسلام » لو حضر معاركتهما حول اسمه لابعدهم كلهم عنه بلطف . ومن رأيها انه ما من احد ساعد على انتشار الروح الديني في العصر الجديد مثل رنان . واما جريدة الدبا الكاثوليكية التي قصر رنان قلمه على الكتابة فيها في حياته ولم يكن يكتب في غيرها فقد رأت رأياً جميلاً . قالت : ان رنان خدم الروح الديني في العالم خدمة ما بعدها خدمة . فانه هدم « روح فولتير » هدماً . اعني روح التهكم على الاديان والمذاهب واعتبارها اساطير قديمة . ولما هدم رنان تلك الروح بشيئين : الاول اعتقادي

كتابة تاريخ الديانة المسيحية عن الكتب المسيحية نفسها . والثاني تعليمه الناس احترام الامور الدينية واظهاره جمال العواطف الصادرة عنها . فان كل قارئ لا يتمالك ان يطرب طرباً كلما قرأ ذلك الكلام الذي انطلق روحاً دينياً ويتمتع نفسه منه . وهكذا انه حمل ابناء العصر على احترام العواطف الدينية ووضعها في اسمى منزلة في نفوسهم بعد ان كان لا حظ لها الا التهكم عليها واحتقارها . وبذلك حدث « الروح الرنانية » بدل « الروح الفولتيرية »
واليك بعض الامثلة لذلك

قال رنان في مقدمة كتابه « اعمال الرسل » ان الانسان حيوان ديني اي مفطور على الدين . وكلما ارتقت الانسانية ازداد شعوره الديني . وقد شرح ذلك هناك شرحاً وافياً . وهذا الرأي يخالف رأي الماديين والوضعيين على خط مستقيم

وقال في منتخباته ما نصه « انه لما كان في عزبر لبنان نزل ضيفاً على احدى الاسر الكبيرة هناك . فلما قامت الدوخة في فرنسا بسببه دخل كبير تلك الاسرة عجلاً له وسأله قائلاً يا ترى ما بالهم ينسبون الى المسيو رنان ما ينسبون ، الخوض عن المعتقد ، وانتقاد الايمان . هل يعتقد بالله . فاجاب الرجل : انه صحيح هذا وتجديد الايمان . فاجاب ذلك الشيخ الكريم : هذا شيء اكبر هذا شيء كثير » وقد اورد رنان هذه القصة لاثبات قوله

وحدث في الشهر الماضي احد كتاب طرابلس قال : بعد دفن اخت رنان في جبيل لبنان اكثر رنان يستدعي الكهنة لاقامة القداسات عن نفسها . وما قيل له في ذلك الجنب الذي المتدل عليه ... شيوخ صالحون كهؤلاء الشيوخ وحمل ذلك دون اقامة قبرها بعد حضوري الا فتح هذا شيء يكرهونه

وقال في مقدمة كتابه « اوراق منثورة » « هل الحاجة لاقامة التي سيئة سيئة الى ما وراء الطبيعة في وقت يحتاج الآن ام كلا . فان من يتوهم ذلك نفياً قطعياً ... ان يثبت ذلك اثباتاً قطعياً . لانه اذا كان لم يثبت عقلياً ان الكون مسبب قائد لم يثبت انه ليس هنالك شيء له . فكل ما نعلم انا لا نعرف شيئاً . هذا كل ما نقدر ان نقوله عن وراء الطبيعة . فلا ننكر شيئاً . بل نتشبث بالامل »

وقال في موضع آخر « ان نفسي تشتكي بعد وقوفي في خرائب كنيسة القديس ... شكو طالب الخير الاوفى ... هذا الحاجز حاذ في الليل حول ابواب الكنيسة ... قليلاً من الداخل ... وهكذا نفسي تبقى حول الكنيسة ... حول هذه الالهة الى الابد . ويقول عنها الملاح ... كانها طالب الدخول الى الكنيسة

التلاوة فتذلهم » قال مخبراً لها بعد ايراده هذه الفكرة « ولكن يا للاسف انه لا يجد ابداً اولاداً يخدمون هذا القداس »

وقال رنان في آخر حياته في احدى خطبه وهو من اشهر اقواله : « وددت ان يكون قبري في وسط دير . ولكن الاديرة من الكنيسة والكنيسة لا تريدني وان كانت مخطئة في ذلك . واودّ ان يحفروا على قبري هذه العبارة : لقد احب الحقيقة . الحق اني احببت الحقيقة وطلبتها وسعيت وراءها الى حيث كانت تدعوني دون ان التفت الى ما ضحيته في سبيلها . ومما لا يحتاج الى بيان ان سر الكون لم يتجلَّ لاحد منا . فليس في مقدور احد ان يثق من انه وجده . ان اللانهاية التي تحيط بنا وتضغط علينا لا تحيد بها [illegible] نفسي من كل حذر مفيد . ولكن هنالك شيء واحد يستطيع الانسان ان يجده ويكون على ثقة منه وهو سلامة النية . ولقد عملت ما عملت بسلامة نية . وانا امل ان يصدق هذا القول بالموقف الاخير في يوم الدينونة »

والآن اليك ما قاله في حقيقة [illegible] من رجال الاكليروس لانه كان راهباً في شبابه « كان اساتذتي يعلمونني ما هو افضل من الآداب والاعتقاد اللاهوتي . ذلك انهم كانوا يعلمونني حب الحقيقة واحترام العقل والمعيشة الجدية . وهذا هو الشيء الوحيد الذي لم يخطئوا فيّ . ولقد صحبت غريزتهم لا اقدر على شيء من الخيبة الدينية المصروفة الى الطاعة الوجهية [illegible] ان كل عمل ما يجب عملاً دنياً . فيا اساتذتي الاعزاء الذين مات اكثرهم الآن . فيما احييه في احلامي ولكنني [illegible] سواء عندي لا كتب [illegible] مني [illegible] بقدر ما تظنون . [illegible] ان [illegible] فانكم اضعف من الفلسفة التي [illegible] ان لا تقبل ابداً [illegible] خاصاً وراء الطبيعة [illegible] لا [illegible] هذا الكلام . [illegible] اعتقد ان الجرأة لا قدر لها ولا قيمة الا [illegible] في الاخلاص والحقيقة [illegible] لا انكم تضعون [illegible] شيئاً [illegible] هذه الحقيقة [illegible] محبوس من حيث اساس [illegible] فانكم لا [illegible] في [illegible] الذي قد يتبع [illegible] الايمان [illegible] الا انه يبقى السعادة والراحة في هذه الحياة وهو ان الانسان [illegible]

ولما وصل ١٩ [illegible] كان [illegible] رنان [illegible] في ساعة [illegible] الزوار والعباد [illegible] الاحتفال [illegible] عنه . وهذا [illegible] وان [illegible] يعتقد في [illegible] كل [illegible] في [illegible] الاحد

الحكمة عند اليونان يحمل في اكليلاً اخضر على رأسه ويتجه الى جانبه وعصاه في يده وهو غائص في بحر التفكر والتأمل في الحياة والكون والانسان حسب عادته · وهذا التمثال من صنع النقاش جان بوشه · وقد قامت قيامته وقعدت في ذلك اليوم لكثرة المتألبين عليها · وحدث بين حزب رنان والحكومة وبين الحزب الاكليريكي الملكي شيء من الاضطراب ولكن من حسن الحظ تغلب الفريقان العقل على الجنون فانتهى الامر على احسن حال · وكانت الحفلة تحت رئاسة المسيو كومب رئيس الوزارة والمسيو شوميه وزير المعارف العمومية · ولما رفع الستار عن التمثال صفق الحاضرون وهتفوا وتلت حينئذ المدموازل ماربنو « صلاة رنان على الاكروبول » وهي ارق ما كتبه الفيلسوف · ثم شرعوا في الخطب · وهي ست : الاولى للمسيو كيس رئيس جمعية « البرطانيين الزرق » صاحبة التمثال ؛ والثانية للمسيو كيلم شيخ ترجيه ؛ والثالثة للمسيو شوميه وزير المعارف بالنيابة عن الحكومة الجمهورية ؛ والرابعة للمسيو برتلو الكيماوي المشهور صديق رنان الحميم بالنيابة عن جمعية العلماء ؛ والخامسة للمسيو اناتول فرانس الذي خلف رنان في فرنسا برقة العبارة والجرأة ؛ والسادسة خطبة شكر تلاها المسيو بيشاري صهر رنان · وكانت قرينته مدام بيشاري ابنة رنان حاضرة الى جانبه

واقد نشرنا في الجزء الثامن من « الجامعة » السنة الرابعة تفاصيل هذا الاحتفال وترجمة بعض الخطب التي القيت فيه خصوصاً خطبة المسيو اناتول فرانس احد رجال الاكاديمية الذي قال في ختام خطابه مخاطباً تمثال رنان عن لسان « آثينا » الالهة الحكمة التي نصب تمثالها وراء تمثال رنان بحكمة ما تعرفه « فكن مطمئناً واقبل الآن من يدي غصن الذهب الذي استحقه جدك وكدك · حتى تعد مقيماً في ارق القلوب واقوى النفوس · اني لا احيي فيك يا اعظم اصدقائي · فقد نلت الخلود الذي كنت تصبو اليه · وكل ما ابرزته نفسك من الجمال والخير لا يذهب شيء منه سدى بل يبقى الى الابد · فان الانسانية لا بد ان تحقق احلام الحكماء تدريجياً فيكون كل منها حقيقة »

الباب الثالث

المقدمات

وفيه هديته الى اخته ، وتاريخ كتابه ، ومصادره في مقدمتين ،
وهنا من تاريخ الحركة المسيحية في بدايتها

مقدمات تاريخ المسيح

ان الحلقة التي نخص بها هنا تاريخ المسيح هي من الطبعة الخامسة والعشرين — اي انه اعيد طبعها ٢٥ مرة . وقد صدّرها المؤلف بهدية الكتاب وهي الى اخته المدموزال هنريت رنان التي رافقته في سوريا وفلسطين وتوفيت بالحمى في جبيل (لبنان) ثم يلي ذلك ثلاث مقدمات . ونحن نختصرها كلها قبل الوصول الى موضوع الكتاب . قال المؤلف في الحلقة المصرية

الهدية الى اخته

«الى روح اختي هنريت الطاهرة

«التي توفيت في جبيل في ٢٤ ستمبر سنة ١٨٦١

«اتذكرين وانت الآن مستريحة في احضان الله تلك الايام الطويلة التي قضيناها في غزير التي كنت فيها وانا منفردين نكتب صفحات هذا الكتاب الذي كانت توحيه الينا الاماكن التي زرناها معا . لقد كنت صامتة بجانبي تقرئين الصفحات التي

كنت اكتبها وكنا اتممت صفحة تناولتها وقرأتها ثم نسختها بعد قراءتها . هكذا كنا نقضي النهار وتحت انظارنا البحر والقرى والجبال المجاورة . اما في الليل فانك كنت تلقين عليّ سؤالات دقيقة لطيفة كان يغيب اي شيء من ازلياتك فكانت هذه الاسئلة تعيدنا الى الموضوع السامي الذي كان شغلنا الشاغل . وقد قلت لي يوما انك تحبين هذا الكتاب لامرين الاول لانه كتب في حضرتك والثاني لانه كتب على ذوقك . وكنت معتقدة بانه اذا خيف عليه من حكم الرجل الطائش السريع الحكم الضيق القلب فان كل رجل ذي نفس متمسكة بالدين تمسكاً حقيقياً لا بد ان تفضي به قراءته الى الرضى عنه والسرور به . وبينما كنا منصرفين الى هذه التأملات الحلوة جاء الموت وغشانا كلينا بجناحه . فرقدنا رقود الحمى في وقت واحد . ثم انتبهت فوجدت نفسي وحدي . فانت الآن راقدة بسلام في ارض ادونيس قرب بيبلوس المقدسة (جبيل) في جوار المياه المباركة التي كانت تقصدها نساء الاديان القديمة الخفية يمزجن دموعهن بمائها . فيا ايتها الروح الصالحة . اوحي الي انا الذي كنت حبيباً اليك في حياتك تلك الحقائق التي هي اقوى من الموت والتي تعلم الانسان ان لا يخاف بل ان يحبه .

المقدمة الاولى

وفي هذه الحدية المقدمة الاولى للكتاب وقد وضعها المؤلف للطبعة الثالثة عشرة من كتابه . وقد رد رنان في هذه المقدمة رداً مختصراً على معارضيه . وهم فئتان . الفئة الاولى منكرو الوحي الذين انكروا عليه الاعتماد على الكتب المقدسة في كتابة تاريخ المسيح لانهم لا يعتقدون بصحتها . والفئة الثانية المعتقدون بهذه الكتب بلا بحث ولا جدال وهم رجال الدين ورعيتهم من المؤمنين . وقد قال في ختام هذه المقدمة ما نصه

« اني مسيحي ولكنني لست كباقي المسيحيين . فاني اعترف بوجوب ان لا اتكلم عن كنيستي الا برفق ولكن هل ذلك يقضي عليّ بان اغض عيني عن الحقيقة . وهل اهين حكومة من الحكومات اذا قلت انها لم تحسن تدبير الاميال المختلفة التي في نفوس الناس او اهين ديناً من الاديان اذا قلت انه لم يسلم من الاعتراضات الهائلة التي يثيرها العلم في كل يوم في وجه التعاليم التي من فوق الطبيعة . ان الديانات تسقط الواحدة بعد الاخرى لانها تخاطب القلب لا العقل ولانه ليس في العالم قوة قادرة على خنق ذلك العقل

« ومع ذلك فاذا تمكن العقل من خنق الديانة فالويل له في ذلك اليوم . صدقوني ان كرتنا الارضية تعمل في عمل عظيم سيؤدي الى نتيجة عظمى . فلا تقولوا ان هذا نافع

وهذا غير نافع بل دعوها تعمل فان الطبيعة التي خصت الحيوان بغريزة لاتخطئ لم تضع في الانسان شيئاً يخدع . ولا تقولوا ان الاديان تخطئ كما ارادت اقامة البرهان على وجود « اللانهاية » وتحديدها والزعم بانها شخص فانها اذا كانت تخطئ في ذلك فانها تصيب جداً كما كنت وجودها . واذا مزجت بذلك كثيراً من الاغلاط فليس ذلك بالشيء المذكور بازاء الحقائق التي تنادي بها . وان ابسط الناس المؤمنين في قلوبهم اكثر معرفة بحقيقة الاشياء من ذلك المادي الذي يفسر كل شيء في الحياة بالصدفة وفناء المادة »

وغني عن البيان ان المؤلف لم يوجه القول الاخير الا الى الماديين الذين ينكرون الاديان

المقدمة الثانية

اما المقدمة الثانية فقد تكلم فيها عن المصادر التي استقى منها تاريخ المسيح . وهي خمسة (١) الاناجيل الاربعة واعمال الرسل والرسائل (٢) الكتب المدسوسة « او كريف » من العهد القديم وهي الكتب التي لا تعتقد الكنيسة صحتها (٣) مؤلفات فيلون الفيلسوف الاسكندري الذي عاصر المسيح (٤) مؤلفات المؤرخ يوسيفوس الشهير الذي عاصر المسيح ايضاً (٥) التلمود وهو كتاب اليهود

قال المؤلف : اما مؤلفات الفيلسوف فيلون فانها خير مرشد الى الافكار الدينية التي كانت تختلج في نفس الامة اليهودية في ذلك الزمان . ولكن من سوء الحظ ان فيلون كان يعيش في اقليم غير الاقليم الذي ظهر فيه المسيح (اي مصر) وكان عمر فيلون اثنتين وستين سنة لما بلغ يسوع اشده واظهر دعوته . وكان فيلون شديد الكره لعقائد معلمي الكتبة والفريسيين وقد عاش بعد يسوع عشر سنوات على الاقل . فيا لها من خسارة ان لا يكون قد ذهب الى الجليل وشاهد المسيح فانه لو فعل ذلك لكتب عنه ما يكفي ويشفي

واما المؤرخ يوسيفوس فانه كان يكتب لليونانيين والرومانيين الذين كانوا اصحاب السلطة على فلسطين ولذلك لم يكتب باخلاص كما كان يكتب فيلون لئلا يلقي التهمة على اليهود ابناء وطنه . وقد كتب ما كتبه عن المسيح ويوحنا المعمدان ويهوذا الغولوني باختصار وغموض لم يفهم اليونانيون والرومانيون حقيقة الحوادث التي كان يشير اليها . قال المؤلف . اما الفقرة التي جاءت في كتابه عن المسيح فانها حقيقية واذا كان يوسيفوس قد كتب عن المسيح فانه لا يكتب الا ما كتب لان ذلك الاسلوب اسلوبه . ولكن القارئ يشعر ان يد المسيحية قد لمست تلك الفقرة وحذفت منها وزادت عليها شيئاً

ولا سيما هذه الكلمة التي جاءت فيها وهي «اذا كان يجوز ان نسميه انسانا» ولولاها لكان كلام يوسيفوس شهادة على رجال الدين لا لهم . ومما يرجح هذا القول ان المسيحيين في القرون الاولى اتخذوا كتب يوسيفوس تاريخا رسميا لحوادث بلادهم فمن غريب ان يكونوا لم ينشروا في القرن الثاني للميلاد طبعة تتضمن جميع كتبه . ومهما يكن من هذا الامر فان اهمية هذه الكتب في كتابة هذا التاريخ لا تخفى على احد لان هذا المؤرخ اليهودي يزيد فيها بكثرة تفصيله هيرودس وهيروديا وانتيباس وفيلبس وحنان وقيافا وبيلاطس كأنهم اشخاص احياء بيننا

ثم تكلم المؤلف عن اسفار الابوكريف وعن الانجيل والتلمود كما تكلم عن المؤرخين اليونانيين . فقال ان بابياس لم يسمع بوجود انجيل يوحنا ولكنه يقول ان الرسول متى كتب انجيلا باللغة العبرانية فلا يجاريه احد في نقل خطب المسيح وقد حفظها كما ان مرقس لا يجاريه احد في دقة نقل الحوادث وتفصيلها بتدقيق وثبات . ثم رد المؤلف على الذين لا يعتمدون على الكتب المقدسة فقال ان المسيو سبرنجر كتب تاريخ حياة صاحب الشريعة الاسلامية واعتمد فيه على الحديث النبوي ثم لم يعارضه المعارضون في هذا كذلك . واذا قام غدا رجل لكتابة تاريخ الفلسفة اليهودية في القرون التي تقدمت ظهور المسيح وتلته بضعة قرون فهل يعترضون على هذا الكاتب اذا نسب الى الفلاسفة اليهود هلل وشماي وغملائيل الاقوال التي ينسبها اليهم كتاب المشنا والجمارة مع ان هذين الكتابين لم يكتبا الا بعد موت اولئك الفلاسفة ببضعة قرون

ثم رد على الذين يقولون بالعجائب فذكرها وقال ان الذي يعتقد بها ويروم جعل هذا الاعتقاد قاعدة لمباحثي ومناقشاتي فلا يبحثني ولا يقرأ كتبي لاننا لا نتفق ابدا . ثم وصل الى المصدر السادس الذي اعتمد عليه في كتابة كتابه فقال هذا القول الذي يعد تاريخا لذلك الكتاب

« تلك هي القواعد التي بنيت عليها كتابي . ولكني اضفت الى المصادر التي تقدم ذكرها مصدرا جديدا هو زيارة الاماكن التي حدثت تلك الحوادث فيها فكانت في نوعها مرشدا . فان البعثة العلمية التي عهدت اليّ ادارتها بين عام ١٨٦٠ و١٨٦١ للتنقيب عن آثار فينيقيه والبلاد القديمة اقتضت اقامتي مدة على حدود بلاد الجليل والسياحة فيها مرارا . فطفت في هذا الاقليم الانجيلي من كل الجهات وزرت اورشليم وحبرون والسامرة وكل مكان له علاقة بتاريخ المسيح . وقد تجلت لعيني عن تلك الاماكن ان الحوادث

السيرة الاولى حدثت في فضاء خيالي لا حقيقة له ولكن لما زرت تلك الاماكن تجسمت فيها تلك الحوادث امامي تجسماً ادهشني . لقد كان الائتلاف تاماً بين النصوص الانجيلية والاماكن المذكورة . واذ نظرت تلك الاماكن الطبيعية العجيبة وقابلت بينها وبين روح الكمال الموصوفة في الانجيل شعرت بانطباق هذه على تلك وحينئذٍ احسست كأنَّ وحياً اوحي اليَّ . فتأملت فوجدت امامي انجيلاً خامساً ممزقاً وهو انجيل الطبيعة . فعرفت قرأته فيه . ولما كنت انتقل منه الى الجليل مع رفقتي كنت ارى بين السطور صورة شخص عظيم حي . ثم جاء الصيف فصعدت الى غزير في لبنان لاستريح قليلاً وهناك كتبت بسرعة وصف تلك الصورة العظيمة التي ظهرت في فكري منها هذا التاريخ . ثم رزئت في مصيبة اختي التي اضطرتني الى تعجيل سفري . وقد احدث ... فسافرت ولم يكن باقياً عليَّ من هذا الكتاب غير بضع صفحات . فاذاً قد كتبت هذا التاريخ في مكان قريب من الاماكن التي عاش يسوع فيها في كوخ ماروني دون ان يكون حولي سوى خمسة من الكتب او ستة . ولما عدت الى بلادي احدثت اصلاحاً في تلك الصفحات التي كتبتها بسرعة

وفي ختام هذه المقدمة نقول ما خلاصته . واذا كان يجب على الكاتب ان يكون ميالاً للموضوع الذي يكتب فيه ليجيد فيه ويحسن في شرحه فان ذلك لا يكفي . ولا اجهل انه يجب على الذي يتصدى لتاريخ دين من الاديان امران . الاول ان يكون قد آمن به اولاً والا فانه لا يفهم شيئاً من محاسنه ولا يدرك ما فيه من معززات النفوس ومرضيات الضمير البشري . وثانياً ان يكون قد صار ممن لا يؤمنون به ايماناً مطلقاً من غير شرط ولا قيد لان الايمان المطلق لا ينطبق على العلم والتاريخ لكونه يوجب التسليم والعلم والتاريخ لا يعرفان تسليماً . ولكن الحب قد ينشأ في القلب من غير ايمان . واذا كان الانسان لا يعتقد بصدور الامور التي تستوجب عند الناس العبادة والايمان فان ذلك لا يمنعه من الاعجاب بما في تلك الامور من الجمال . اما الالوهية فانها لا تنفد مهما تكرر ظهورها لان الله قد ظهر قبل يسوع المسيح وسيظهر بعده . وظهوره سواء كان كبيراً او صغيراً فانه من طريق واحد وهو ارادته المودعة في الضمير البشري . فليس يسوع اذاً خاصاً بالذين يسمون انفسهم تلامذته ولكنه شرف عام للجميع اي لكل من له قلب انسان . وما عظمته وتمجيده ان يوضع خارج دائرة التاريخ ولكن ان يوضع في داخلها . وان اصح عبادة تقدم له هي اظهار ان التاريخ البشري غير مفهوم بدونه .

المقدمة الثالثة

نبذة من تاريخ الحركة الادبية في العالم

وقد جعل المؤلف هذه المقدمة الثالثة تمهيداً لموضوع الكتاب فبحث فيها عن الحركة الدينية في العالم منذ نشأته . فقال ان التمدن القديم الذي نشأ في الصين وبابل ومصر قد رقى الاديان بعض الشيء لان الاديان في مصر وسوريا والهند والصين كانت تحتوي كثيراً من المبادىء الادبية ولكن الاوهام والخرافات كانت كثيرة فيها ولذلك لم يكن ممكناً ان يصدر عنها فكر عظيم . وكيف تصدر الآداب والحرية عن نسل ما فتئ ذليلاً مستعبداً منذ وجوده .

واما النسل الذي صدر عنه الايمان والحرية والنزاهة والاخلاص وتصورات النفس العزلية فهو نفس هنود اوروبا والساميين . ويريد بالساميين جميع الشعوب التي كانت تتكلم بلغة من اللغات التي نسميها سامية (العربية والسريانية والعبرانية والارامية والكلدانية والاشورية والحميرية) . فمن هذين النسلين (هنود اوروبا والساميين) خرج تمدن العالم واديانه الراقية . اما هنود اوروبا فقد كانت لهم عقول ذات تصورات دقيقة وحنانا وعواطف جذبة اي عواطف من الزم لوازم الآداب والدين . ومع ذلك فان الدين لم يخرج منهم لانهم كانوا شديدي التمسك بتقاليدهم الدينية القديمة . وانما خرج من الساميين الذين كان لهم في ذلك فضل عظيم على الانسانية

فالذين اهتدوا الى سبيل الدين الانسانية في العالم هم **اولئك البدو الذين كانوا سارحين في بلاد المشرق تحت الخيام والاطناب بعيدين عن فساد العالم واضطراباته** . وكان من اخص مزاياهم انكارهم على سوريا وبابل الادبية المبنية على اللذة ثم بساطة العبادة لانهم لم يتخذوا هياكل ولا اصناماً . وكان في جملة قبائلهم قبيلة بني اسرائيل . ولا يخفى ان هذه القبيلة كانت ذات صلات قديمة بمصر وقد اقتبست من المصريين اشياء يصعب على التاريخ حصرها وذلك مما زاد في كراهتها الوثنية . فهذه القبيلة تم لها في ذلك الزمن الحصول على التوراة اي شريعة مكتوبة على الواح حجرية وفيها مبادىء ادبية حقيقية واصول المساواة الاجتماعية . وكان لهذه القبيلة شيوخ ممتازون بالمعرفة والشعب يستشيرهم في المسائل العادية وكانوا يدعون انبياء . اما كهنتهم فانهم كانوا يشبهون الكهنة الذين تقدموهم ولا يمتازون عنهم الا بان الشؤون الكهنوتية عند كل واحد منهم كان مرجعها الى رأيه . وكان الانبياء

الذين تقدم ذكرهم من حفاظ المبادئ الديموقراطية القديمة التي كانت خاصة بالقبيلة وهؤلاء كانوا يكرهون كل تنظيم سياسي يرام ادخاله الى بني اسرائيل جاعلين كيانهم الاهم الذي يلهيهم هذا فضلاً عن تعدّيه للاغنياء . فهؤلاء الشيوخ كانوا السبب الاصلي في تقدم الشعب اليهودي في الدين على سائر الشعوب . ولكن لما هجمت السلطة الاشورية على ذلك الشعب وعرّضته لاضمحلاله الى النهاية قام اولئك الشيوخ الصلاحا خطباء ينادون بان مملكة يهوذا ستدوم الى الابد وان اورشليم ستكون عاصمة الدنيا كلها . ثم حدثت انقلابات كثيرة على الشعب اليهودي سببها قيام الدول الكبرى في آسيا بعضها بعد بعض فانقطع امل بني اسرائيل من عودة الملك اليهم فصرفوا نظرهم عن الارض الى السماء وازدادوا تمسكاً بالشؤون الدينية . وقد صاروا حينئذ يرضخون لكل نير يوضع على اعناقهم على شرط ان يحترم فيه امرهم عاداتهم ودينهم . ومنذ ذلك الحين لم يعد عدواً لهم الا كل من كان عدواً للاله الواحد ولم يعد لهم من وطن ولا شريعة غير الشريعة الدينية

ثم ظهر كتاب دانيال فهاج عواطفهم وزاد املهم في قرب قدوم المسيح المنتظر لانقاذهم من ضيقهم . فازدادوا تمسكاً بالشريعة الموسوية وصاروا يقتلون كل من يخالفها . ولما كانت تثقل عليهم يد الوثنيين الذين كانوا اولياء امرهم كانوا يزدادون انفصالاً عن الارض ويوجهون انظارهم الى العالم الثاني . وكان العالم مشغولاً عنهم في ذلك الزمن بحوادثه الكثيرة فلم يلتفت الى ما كان يحدث عندهم . ولكن الامبراطورية الرومانية كانت حديثة النشأة اذ ذاك وقد قامت بعد حروب واهوال فكان الناس يتوقعون العصر الذهبي في عهدها . واما اليهود فانهم كانوا يتوقعون حينئذ بصبر فارغ قدوم « مسيا » المنتظر وكان كثيرون من صالحيهم يقضون الليالي والايام حول الهيكل صائمين مصلين وهم يسألون الله ان لا يتوفاهم قبل تحقيق آمال شعب اسرائيل . وكان الانتظار شديداً حتى ان كل واحد من الناس كان يشعر بقرب حدوث شيء عظيم .

ثم جاء المنتظر ورقّى الدين الى درجة من الكمال والسمو لم يبلغها قبل ذلك

صورة ميلاد الطفل يسوع

الباب الرابع

في تاريخ المسيح

ملخص تلخيصاً عن كتاب الفيلسوف رينان

الفصل الاول

التاريخ المسيحي · وصف الناصرة وطن يسوع · مهد التربية المسيحية

ولد يسوع في الناصرة · وكانت قبله بلداً خاملاً لم تشتهر بشيء ولم يرد لها ذكر لا في التوراة ولا في التلمود ولا في مؤلفات يوسيفوس · ولذلك كان معاصروه يدعونه «الناصري» · وقد كانت ولادته في عهد اغسطس قيصر وربما كان ذلك سنة ٧٥٠ من بناء رومه · اي انه ولد قبل السنة الاولى من التاريخ المسيحي الذي اصطلحت عليه اليوم الامم المسيحية ببضع سنوات

ومن الراجح ان الناصرة لم تكن في زمن ولادته تختلف كثيراً عنها اليوم · فان الهواء والجو لم يتغيرا في جميع بلاد سوريا عما كانا عليه يومئذٍ ولذلك لم يتغير شيء على الارجح من طرق بناء منازلها واتجاه دورها وشق شوارعها · ففي تلك الشوارع المفروشة بالحجارة وتلك الساحات الصغيرة التي هي ملتقى شوارع كثيرة تفصل الاكواخ والمنازل بعضها عن بعض كان يلعب الصبي يسوع · ولا ريب ان منزل يوسف كان شبيهاً بتلك الغرف الصغيرة التي لا يدخلها النور الا من بابها والتي تُتخذ لكل شيء حتى الطبخ والنوم · ولا فراش فيها غير «حصيرة» على اطرافها بعض «مساند» «مخدات» موضوعة على الارض ووعاء او

وعاليين من الفخار وخزانة مدهونة

وكانت الناصرة بلدة صغيرة قائمة في حيّزة ارض منبسطة على متن بعض الجبال . اما سكانها فانهم يبلغون اليوم (اي في زمن رنان) اربعة آلاف نسمة فكأنها الناصرة القديمة لان المؤرخ يوسيفوس يقول ان اصغر قرى الجليل كان عدد نفوسها خمسة آلاف نسمة وان كان هذا القول لا يخلو من مبالغة . والبرد في الناصرة شديد في زمن الشتاء ولكن الهواء جيد جدًّا . وكانت الناصرة في ذلك الزمن شبيهة بكل قرى اليهود يومئذ اي انها كانت مؤلفة من منازل مبنية من غير هندسة ولا نظام ومنظرها شبيه بمنظر القرى الاسيوية . وربما لم تكن منازل الناصرة تختلف عن المنازل الحجرية المربعة القائمة في جهات لبنان العامرة والتي اذا احيطت بها اشجار الكرمة والتين المغروسة بجانبها كان لها منها منظر رائق . اما المكان الذي بُنيت فيه الناصرة فانه مكان شائق وليس في الدنيا كلها مكان افضل منه للتأمل في السعادة والراحة . ولا تزال هذه المدينة الى اليوم مقامًا جميلًا . اما سكانها فهم قوم اتوا اللطف والبشاشة . وحدائقها باردة خضراء . وقد وصف « انطونين مارتير » الناصرة في اواخر القرن السادس عشر فشبّه ارضها بارض الجنة من فرط خصبها ولا يزال في غربي المدينة اودية خصيبة ينطبق عليها وصفه . اما العين التي كانت مركز الحركة في هذه المدينة وكان حولها السرور شاملًا فقد تهدمت ولا يجري الآن من فمها سوى ماء كدر . واما جمال النساء الناصريات اللواتي يجتمعن حولها في المساء — ذلك الجمال الذي كان مشهورًا عنه في القرن السادس عشر ان هبة للناصريات من مريم العذراء فانه لا يزال يترقرق في وجوههن . فهنالك الشكل السوري الجميل في تمام خلقته . ولا شبهة في ان العذراء كانت تقف في صباها بين اولئك النساء حول العين ومعها الاناء لتستقي منها . وقد قال انطونين مارتير ان نساء اليهود يكرمن المسيحيين في هذا المكان مع انهن يكرهنهم كرهًا شديدًا في غيره . فكأنّ هواء وطن السيد لطّف اخلاقهن . واذا نظرت في البغض الديني وجدته في هذا المكان اخف منه في سائر الامكنة

واما منظر الافق من المدينة فانه قصير ضيق ولكنك اذا صعدت الى الآكام المشرفة على المدينة انبسط امامك منظر جميل يسحر الالباب . فانه من الجهة الغربية يظهر لك جبل الكرمل ممتدًّا الى البحر وداخلًا فيه ويليه غيره من الجبال يفصلها وادي الاردن وسهول بيريا المرتفعة . اما في جهة الشمال فانك ترى جبال صفد متجهة نحو البحر وهي تستر عنك عكا وتظهر لك خليج حيفا

فهذا كان افق يسوع . هذا كان في صباه المنظر الدائم امام عينيه . هذا هو مهد ملكوت الله ومهد الديانة المسيحية . فاذا بقي العالم مسيحياً في مستقبل الزمان وصار اكثر احتراماً لاصول الدين واشد رغبة في استبدال الاماكن المقدسة المشكوك فيها باماكن حقيقية فما عليه الا ان يبني كنيسة على هذه الآكام التي كان يسوع يجلس عليها ويشاهد العالم منها (١) هناك يجب ان تُقام الكنيسة الكبرى التي يجب ان يحج اليها المسيحيون من جميع اقطار العالم . هناك حيث يرقد يوسف النجار والوف من ابناء الناصرة المنسيين يحق للفيلسوف ان يقف ويتأمل في مجرى حوادث العالم ليعزي نفسه عما يصادفه الانسان في هذه الحياة من الفشل والخيبة في اعز ما يكون لديه ولكي يتحقق ان العالم سائر الى غرض الهي لا يصرفه شيء عنه مهما قام في سبيله من المتاعب والعثرات

الفصل الثاني

التعليم عند اليهود بوجه عام . لغة يسوع

تلك هي المناظر الطبيعية الجميلة التي رُبي يسوع بينها . ولقد تعلم يسوع في قريته وتعلم الكتابة والقراءة (انجيل يوحنا الاصحاح ٨ العدد ٦) وكان معلم المدرسة في القرى اليهودية يُدعى « الحزان » والقارىء في المعبد . ولا يحتمل ان يكون السيد قد تعلم اللغة اليونانية في حياته وانما كانت لغته اللغة السريانية ممزوجة بالعبرانية وهي اللغة التي كان يتكلمها اهل فلسطين في ذلك الزمان . اما اللغة اليونانية فقد كانت محرمة على اليهود . وقد حرم بعض رؤسائهم من تعلمها فقال « ان من يعلم ابنه علم اللغة اليونانية ومن يربي الخنازير ملعون في الجماعة » وسُئل احد رؤسائهم في اي وقت يجوز تعليم العلوم اليونانية للاولاد فاجاب « يجوز ذلك في كل وقت غير الليل والنهار لانه مكتوب انه يجب درس الشريعة في الليل والنهار » فكأنه اجاب لا يجوز درسها . ومع ذلك فقد كان بعض اليهود يدرسون العلوم اليونانية ويحاولون ادخالها الى الآداب اليهودية . واشهرهم نقولا داماس او الدمشقي الذي كان اشهر علماء عصره ويوسيفوس الذي قال عن نفسه انه ممتاز بذلك عن باقي اليهود . ولقد نشأت في مصر طائفة من علماء اليهود كانت تقتبس العلوم اليونانية وتنشرها ونشأ فيها الفيلسوف العظيم فيلون الاسكندري ولكن يهود فلسطين كانوا يعدون

---

(١) قد بنيت اليوم هذه الكنيسة كما تمنى رنان

هذه الطائفة منفصلة عنهم · ولقد كان انفصالها تاماً حتى انه لم يرد لها ذكر في التلمود · وقد كان لزعيمها فيلون الذي اشرنا اليه تعاليم شبيهة بتعاليم السيد من حيث الدعوة الى الله المحبة ومحبة الله والاحسان والراحة في حضن الله

واذا كان السيد لم يقف في صباه على الفلسفة اليونانية وعلومها فلا ريب انه وقف على فلسفة هلل الفيلسوف اليهودي الذي عاش قبل ظهوره بخمسين عاماً معيشة الفقر والقناعة ودماثة الاخلاق وكان يعارض الكتبة والفريسيين

الفصل الثالث

حال بني اسرائيل في الاستقلال حين فتح بابل · حيرة امرهم حين دخول الرومانيين الى آسيا · آل هيرودس حكام منتصرين تحت سلطة الرومانيين في عهد زمن المسيح · ثوران النفس اليهودية ضد العبودية · حكام اورشليم الرومانيون · خروج الغيورين المتعصبين على الاعداء

اما الوسط المضطرب الذي ربي فيه السيد فلا مثيل له في الاضطراب في تاريخ العالم غير الوسط الذي نشأت فيه الثورة الفرنسوية · فان الشعب اليهودي في بابل موضوعاً مضطهداً انتبهت قوى نفسه كلها واتجهت الى غرض واحد وهو الانتقام من اعدائه وبسط جناح سلطته على جميع اقطار العالم طبقاً لما كان يجيء في نبوات انبيائه · ولم يكن الشعب الاسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الانسان عنصرين مستقلين احدهما الروح والآخر الجسد وانه اذ تعذبت الروح في هذه الحياة فانها تستريح في الحياة الثانية لتسرى عنه شيئاً كثيراً مما كان يجده من عذاب النفس واضطراب الفكر بسبب ذله وخضوعه مع ما كان يراه في نفسه من الامتياز الادبي والديني عن الشعوب التي كانت تذله · ولكن الفلسفة اليهودية كان من مقتضاها السلطة الفعلية في نفس هذا العالم · فانه يأخذ من اقوال انبيائهم وشيوخهم ان الصالحين يعيشون في ذاكرة الله والناس الى الابد وهم يقضون حياتهم قريبين من عين الله ويكونون معروفين عند الله · اما الاشرار فلا · هذا كل جزاء اولئك وعقاب هؤلاء · ويزيد الفريسيون على ذلك ان الصالحين يُبعثرون في هذه الارض يوم القيامة ليشتركوا في ملك المسيح الذي يأتي لينقذ الناس ويهجون ملوك العالم وقضاته وهكذا يتمتعون بانتصارهم وانخذال الاشرار اعدائهم · وعلى ذلك تكون مملكتهم هذا العالم نفسه

فلما انتصر كورش الفارسي وفتح بابل تخيل اليهود انه قد انفتح في وجوههم باب جديد

وعاد اليهم ملكهم . فتآخى كهنة الفرس وكهنة اليهود . ولكن السلطة اليونانية والرومانية لم تلبث ان دخلت الى آسيا بقوة وشدة فانقطع امل بني اسرائيل من عودة الملك اليهم فعادوا الى احلامهم الماضية من دعوة مسيا لانقاذهم واعادة ملكهم وتحقيق نبوآت انبيائهم . وقد اشتد ذلك عليهم بعد خروج البلاد من يد اسرة الملك هيرودس الى يد الرومانيين . فان هذا الملك العظيم الذي يشبه بعظمته سليمان كان قد ولى ابناءه الثلاثة جميع بلاد فلسطين تحت سيادة الرومانيين فكان شأنهم معه شأن امراء الهند المستقلين اليوم . فكان ابنه انتيباس والياً لبلاد الجليل وبيريا وكانت الناصرة تابعة لولايته . وابنه فيليبوس والياً لغوولونيتا وباتانيا . وابنه ارخيلاوس والياً لاورشليم . وقد توفي هيرودس الكبير في نفس السنة التي ولد المسيح فيها . وبعد انقضاء عشر سنوات على وفاته عزل اوغسطس قيصر ارخيلاوس ابن هيرودس والي اورشليم لانه كان ضعيف الرأي سيء الادارة ثم ضم كل ولاية يهوذا الى السامرة وادوم وجعلها تابعة لسوريا بحيث كان يقيم بوبليوس سولبيسيوس كيرينيوس احد اعضاء مجلس الشيوخ الروماني نائباً امبراطوريا من قبل القيصر وحاكماً على تلك القطعة كلها . ومن هذا الحين قضي على استقلال مملكة اورشليم . فزاد ذلك في بؤس اليهود واثار تذمرهم لانهم كانوا يعتقدون الرجس والنجاسة في التمدن الروماني الذي تسلط عليهم . وقد ولي اورشليم اولاً كوبونيوس ثم جاء بعده ماركوس امبيفوس فانيوس روفوس فالاريوس كراتوس . ووليها بعده في عام ٢٦ للميلاد بنطس بيلاطس صاحب الشأن في الحوادث المسيحية الاولى . وكان هؤلاء الولاة تابعين لوالي سوريا ولا شغل لهم غير اخماد نار الفتنة التي كان يضرمها اليهود تحت اقدامهم

ذلك ان غلاة المتدينين من انصار شريعة موسى قاموا في ذلك الزمان يعارضون السلطة الرومانية فكانوا يكسرون النسور التي في اعلام رومة ويحطمون التماثيل التي اقامتها اسرة هيرودس لانها في نظرهم آثار وثنية لاسيما وان الذين نصبوها لم يراعوا في صنعها الشريعة الموسوية . وكان الموت عقاب كل من يُقدم على اثارة الفتنة ومقاومة السلطة ولكن اولئك المتحمسين في دينهم كانوا يستعذبون الموت في الدفاع عن شريعتهم . فنشأ عن ذلك ظمأ الى الموت والاضطهاد سببه الرغبة في الدفاع عن الشريعة . فالف اثنان من علماء الشريعة يُدعيان يهوذا بن صاريفيا ومتياس بن مرغلوث حزباً لمقاومة اصحاب البدع الرومانية والحملة على تلك الهيئة فامسكهما الرومانيون وعذبوهما وقتلوهما ولكن حزبهما بقي بعدهما . وكأن النفوس كانت قد بلغت بهذه الاضطهادات اقصى درجات

الهياج والاضطراب فظهرت يومئذ شيعة (الكنانيين) او « القتلة الدينيين » الذين كانوا قد آلوا على انفسهم ان يقتلوا كل رجل يحط من شأن الشريعة الموسوية امامهم . وظهر ايضاً اناس يدَّعون صنع العجائب وشفاء الامراض فكان الشعب يقبل عليهم لان الافكار كانت مستعدة بالتحمس الديني لتصديق كل ما يجيء من فوق الطبيعة

ومن الحركات التي كان لها تاثير عظيم على سير الحوادث في ذلك الزمان حركة يهوذا الغولونيتي او الجليلي . فان كيرينيوس والي سوريا وفلسطين امر في السنة السادسة من الميلاد باحصاء عدد نفوس اليهود . وكان اليهود لا يجهلون ان الاحصاء مقدمة لوضع الضرائب على السكان واقد اشتد هياجهم على الملك والنبي داوود يوم امر باحصاء سكان مملكته وتهدده الشيوخ بغضب الله . وذلك لانهم يعتبرون دفع الضرائب ضرباً من ضروب الكفر بالله لان الله هو سيد الامم وحده واليه وحده تُدفع الضرائب لا الى ملوك الوثنيين . ولذلك كانوا يعتبرون اموال الخزانة العمومية اموالاً مسروقة كما جاء في تلمود بابل

فلما درى اليهود بامر كيرينيوس بالاحصاء بلغ الهياج اشده فقام منهم رجلان احدهما يُدعى يهوذا وهو من قرية جمالا القائمة في شرقي بحيرة طبريا وثانيهما فريسي يدعى صادوق ينكران دفع الضرائب ويحرضان الناس على الامتناع عن دفعها . وكان من مبادئهما ان حرية الانسان افضل من حياته فاذا كان احد الحكام يزعم انه سيدي وولي امري ويوجب عليَّ دفع ضريبة له فاولى بي ان اموت من ان اعترف بسيادة عليَّ غير سيادة الله . وقد نشأ امر هذا الحزب في اليهودية ولكن يوسيفوس لم يذكر عنه شيئاً كثيراً مخافة ان يلقي التهمة على ابناء وطنه انما وضع يهوذا الغولونيتي عند كلامه عنه في جملة فلاسفة اليهود واعتبره مؤسساً لمبدإ رابع غير مبادىء الصدوقيين والفريسيين والاسينيين مع ان فكرته بسيطة لا تستوجب كل هذا الاهتمام . وذلك مما يدل على انه كان ليهوذا هذا مطامع ومطامع سياسية غير التي تقدمت . ولا يبعد ان يكون قد جعل نفسه رئيس حزب غرضه الاشتغال بما يختص بمجيء المسيح المنتظر . وقد لقي يهوذا الغولونيتي الموت جراء هذه الثورة ولكن حزبه بقي حياً بعده . ولا نعلم هل رآه يسوع وشهد نهضته ولكن مما لا ريب فيه انه قد وقف على مبادئه . ولذلك يقول بعضهم انه لما جاء قوم الى السيد ليجربوه وسألوه عن الجزية فاجابهم « اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » كان يريد بذلك ان مملكتي غير مملكة يهوذا الغولونيتي واصلاحي غير اصلاحه

وهكذا كانت بلاد الجليل في ذلك الزمان عبارة عن تنور حامٍ تضطرب فيه العناصر

الخالقة ، وكانت السلطة الرومانية لا تعطنا على مذهب الخواطر الا متى اشتغل امره لان الرومانيين كانوا يمنحون محكوميهم من الحرية اكثر مما يمنح الاور وبيون محكوميهم في هذا الزمان ، وحسبنا دليلاً على ذلك ان البولس الروماني لم يعترض السيد المسيح في اثناء تعليمه الا حين رفعت عليه الشكوى من اليهود ، فكانت هذه الحرية باعثاً على زيادة الافكار اليهودية انتشاراً

الفصل الرابع

في فلسطين وجمهورها – وصف طبيعتها – بدء تعليم يسوع

اما فيما يختص بالافكار الحيوية فيمكن قسمة اليهودية الى قسمين – قسم الشمال الذي فيه الجليل ومن ضمنه الناصرة والقسم الثاني اورشليم ، على ان كل الاعمال الحسنة والمبادئ السامية صدرت من القسم الاول وهو الشمال ، اما اورشليم فكانت متمسكة بالتقاليد القديمة كل التمسك ، من الشمال خرجت كنعانية الجو فهؤلاء الجدلية ويوسف الرؤوف والعذراء مريم ، ولولا الشمال لم تسقط اورشليم على العالم

وكانت الطبيعة في تلك الجهات الشمالية في غاية الجمال ومنتهى الرونق فكأنها خلقت لتُملي على الناس وتوحي اليهم نور المبادئ الادبية السامية ، فانه بينما ترى نواحي اورشليم صلعاء جرداء تقريباً ترى الجليل ونواحيها في غاية الخصب والاقبال ، فارضها تكتسي في شهري مارس وابريل (اذار ونيسان) بساطاً جميلاً منقطاً من الازهار الملونة بالوان لا مثيل لها ، وحيواناتها صغيرة ولكنها في غاية اللطف والدعة ، وربما وقعت بعض طيورها على ساق عشبة صغيرة فلم تملها من خفتها ، بل ربما دنت منك حتى صارت بين قدميك تقريباً وذلك لالفتها وعدم نفورها ، وقد ترى في السواقي سلاحف ذوات اعين تروق النظر لطيفة وبطاً ترى عليه لوائح الحياء والرصانة معاً يتحرك كل حوف ويدنو منك ، ولست تجد في جميع بلاد العالم بلداً جبالها احسن من جبال تلك الجهات ، ولا ريب ان يسوع كان يحب الجبال من حبه لجبال وطنه ، فانه كان كثير الصعود الى الجبال وقد القى عليها اسمى خطبه وعمل فيها اعظم اعماله ، وكان اذا صعد اليها تغيرت هيئته وازدادت نفسه الكريمة بالالفة وحكمة

ففي وسط هذه الطبيعة الضاحكة بدأ يسوع يعلم فكان تعليمه عبارة عن نزهة دائمة وسرور دائم ، ويقال انه كان يسير احياناً الى القفار المحرقة التي تلي بلاد الجليل ويقيم فيها

للتأمل والافتكار - ولكنه هنالك كان لا يجد الا اله ايوب اله القوة والصرامة والعقاب . اما حين رجوعه الى الجليل فانه كان يجد تحت سمائها وسط آكامها الخضراء ومروجها النجلاء اله المحبة والسلامة اباه وابانا الذي في السموات - وكان في كل عام يحج مرة الى اورشليم مع حجاج الناصرة وهناك يختلط بشعبه ويقف على ما كان يجول في نفسه . فكأن الحج كان عبارة عن التقاء ابناء الشعب الاسرائيلي في اورشليم مرة في كل عام

ولما مات يوسف انتقلت مريم العذراء بولدها الى قانا الجليل . وربما كان اصل العذراء نفسها من قانا هذه . اما هذه القرية فقد كانت قائمة على مسيرة ساعتين ونصف من الناصرة . وفيها صرف المعلم العظيم قسماً من شبابه وظهرت اول اعماله

وكان السيد نجاراً كيوسف ولم يكن ذلك مما يحط شان الانسان في ذلك الزمان اذ قد جرت عادة اليهود يومئذ بوجوب تعليم كل متقطع الى الشؤون العقلية صناعة ما . ولذلك كان كثيرون من اكابر علماء اليهود يحسنون صنائع اليد مثل « ربي يوحنان » الذي كان اسكافاً « وربي اسحق » الذي كان حداداً والرسول بولس الذي كان صانع بسط وسجادات . ولا يعلم احد كيف ابتدأ يسوع تعليمه ولكن الثابت انه اتخذ فيه طريقاً جديداً . وقد رأينا ان يهوذا الغولونيتي كان يفضل الموت على ان يلقب احداً « سيد الامة » غير الله وحده ولكن يسوع ترك لقب « السيد » لمن شاء ان يتلقب به واقب الله بلقب احلى منه اعني « اباً » . وعلى هذا الاساس بنى تعليمه السامي الذي يجعل البشر اخوة على الارض والخالق في السماء اباً لهم رؤوفاً بهم شفوقاً عليهم تواباً رحيماً يطلع شمسه على الخطاة وعلى الصالحين

ولم يكن يسوع يعلم ضد الشريعة الموسوية ولكن كان يظهر من كلامه عنها انه كان يراها غير كافية . وما ساءه منها انها تضع وسيطاً بين الانسان وبين الله والاشتغال باعراض الامور عن جواهرها . ولذلك كان عدواً لدوداً للتفاصيل الدينية التي كانت تخنق الاصل وكان ضد الكهنة الذين لم يكن لهم شغل غيرها

الفصل الخامس

يوحنا المعمدان وما رواه المؤرخ يوسيفوس عن حادثه

وفي هذا الوقت انتشرت في جميع انحاء فلسطين شهرة رجل عظيم كان يعيش في البرية مرتدياً بجلود الحيوانات ومغتذياً من العسل والجراد البري . وهذا الرجل هو يوحنان او يوحنا الملقب بالمعمدان . وكانت اقامته على شاطئ نهر الاردن في القفار التي تليه . وقد بلغت شهرته اعظمها في سنة ٢٨ من الميلاد المسيحي اي بعد انقضاء ١٥ عاماً على ملك طيباريوس - وكان يوحنا هذا كبير النفس جريء القلب فكان يذم الكهنة الاغنياء الذين يحبون المال والفريسيين والكتبة ويدعو الفقراء والضعفاء الى التوبة نجاة من الضيق والذل ولان ملكوت الله صار قريباً . فتهافت الشعب عليه ليعمدهم في الاردن بحسب طريقته الجديدة . وكان في جملة الذين قصدوه الشاب يسوع وتلامذته الاولون وقد اقام يسوع حيناً بإزاء يوحنا المعمدان ثم دخل الى البرية القريبة من هناك ليفكر بما كان في نفسه وما كان يقوله يوحنا . وكان مشهوراً لدى اليهود حينئذ ان تلك البرية مسكن للابالسة والشياطين فقالوا ان ابليس جاء يجربه - وبعد اقامته في البرية اياماً قضاها في التأمل والافتكار خرج منها فسمع ان الحكومة قبضت على يوحنا المعمدان وزجته في السجن . فعاد بتلامذته الى الجليل لئلا يتهم بالاشتراك في حركة يوحنا . اما سبب القاء القبض على يوحنا فقد ذكره المؤرخ يوسيفوس بالتفصيل وهذه خلاصته

لما كان يوحنا في الجهات التابعة لبيلاطس لم يمسه بيلاطس بسوء على ما يظهر ولم يضايقه . ولكنه لما اقام في جهات الاردن واخذ يعمّد ويعلم تحمس الشعب لكلامه البليغ وسلطته على النفوس حتى قد حسبوه ايليا عاد ونُشِر . فخشي انتيباس حاكم تلك الجهات عاقبة هذا الامر لان الحركة السياسية كانت ظاهرة في اقوال يوحنا من ان اكثرها كان موجهاً الى ذم ملوك العالم وحكامه . فبقي انتيباس يراقبه حتى حدث له معه حادث شخصي حمله على سجنه

وذلك انه كان لهيرودس الكبير حفيدة تدعى « هيروديا » وكانت طامعة قاسية محبة للخلاعة والسلطة فازوجها جدها هيرودس الكبير من عمها هيرودس ابن مريامنه . وربما كان ذلك بغير رضاها لان زوجها كان محروماً من حق الملك والولاية . فاصبحت هيروديا بذلك الحط من شأن اقربائها شأناً لان زوجها ساقط الحق

لا يملك ابداً وهي لطمعها كانت تريد الوصول الى الملك مهما بذلت في سبيله . وكانت هيروديا جميلة فعزمت على اتخاذ انتيباس الذي تقدم ذكره وسيلة الى غرضها . وكان انتيباس هذا مقترناً باميرة عربية وهي ابنة الحارث ملك بترا وامير القبائل الضاربة ماوراء بيريا مملكة انتيباس . فدعت هيروديا لدى انتيباس في ان يطلق امرأته العربية وهي تتزوج به . فرضي انتيباس بذلك من حبه لها . فدرت بهذا الامر زوجته العربية فعزمت على الفرار . فجاءت زوجها واخبرته انها تريد السفر الى ماكور وهي قلعة حصينة على حدود مملكة بيريا وذلك للسياحة قليلاً في اراضيه فاجابها زوجها الى ذلك وبعث معها جنداً لحراستها . اما ابوها فقد كان اعدّ لها وسائل الفرار من قلعة ماكور على يد القبائل التي كانت ضاربة هناك على الحدود فاخذت تنتقل من يد قبيلة الى يد قبيلة تليها حتى اوصلوها الى قاعدة مملكة ابيها . ثم اقترن انتيباس بهيروديا وكان الزواج بالاقارب الى هذا الحد محرماً عند قدماء اليهود وقد سبق لاسرة هيرودس مثل ذلك لان اليهود كانوا لا يزوجونها ولا يتزوجون منها لكراهتهم لها

فلما انتشر خبر زواج انتيباس بهيروديا سخط قدماء اليهود حفاظ التقاليد القديمة ونادى يوحنا المعمدان ان هذا الزواج غير جائز . فامر عند ذلك انتيباس بالقبض عليه وحبسه فسجنوه في قلعة ماكور التي تقدم ذكرها وكان انتيباس قد استولى عليها بعد فرار زوجته العربية منها

وكان سجن يوحنا في السنة التاسعة والعشرين من ولادة يسوع

الفصل السادس

التعاليم الجديدة

ولما عاد يسوع من جهات الاردن اشتدت سلطته على الشعب وعلى تلامذته فاخذ يعلمهم ويعظهم . وقد عدل في تعاليمه عن مقاومة الهيئة الحاكمة وقضى باحترام السلطة والملوك اذ اوجب دفع الجزية الى قيصر ولكن هذا الاحترام كان « سطحياً » ومقروناً بشيء من التهكم . ذلك لان الملوك واصحاب السلطة لا سلطان لهم على نفوس الناس . وليس الحرية والحق من شؤون هذا العالم المملوء بالشرور بل من شؤون العالم الثاني . وليس ثمت ما يوجب كل هذا الاهتمام بشؤون هذا العالم بل يجب احتقار الدنيا وملاذها وتوجيه قوى النفس كلها الى الحياة الثانية . وبهذا التعليم وضع للنفوس في هذا العالم اساس حرية

جديدة مستقلة عن كل سلطة وجعلها مستريحة هادئة مهما عصفت بها عواصف المصائب والاحزان . ولا ينكر ان بعضاً من فلاسفة اليونان كالرواقيين مثلاً استطاعوا انشاء هذه الحرية في نفوسهم وعاشوا بها احراراً في وسط الظلم والاضطهاد اذ لم يكونوا يعبثون بمصاب او يبالون بألم ولكن لم ينقطع احد منهم عن هذا العالم انقطاع المسيحيين ويحسب الدنيا وطناً وقتياً له والآخرة الوطن الحقيقي

ومع ذلك فربما لم يسلم هذا التعليم من اعتراض قوي - وهو ان وجوب اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله قد يكون اقوى وسيلة لمساعدة الظالم واحتمال نير المظالم وفي ذلك ما فيه من انتشار فساد الاحكام والخضوع لحكام الظلام لانه يقضي باحترام كل سلطة تقوم ولو كانت جائرة فاسدة . ولذلك لا اخطئ اذا قلت ان الديانة المسيحية قد اضعفت من هذا الوجه واجبات الوطني لوطنه وساعدت في استسلام العالم الى السلطات الجائرة . ولكن ما انشأته للنفوس من الحرية في العالم وجعلها المسيحيين الاولين في القرون الثلاثة الاولى جمعيات حرة في وسط الاضطهاد لا حاجة بها الى السياسة ولا دخل لها فيها قد عوض ذلك النقص

فالذي امتازت به تعاليم المسيح انما هو سموها عن العالم وشهواته وتحليقها في جو الفضيلة والكمال البعيد . وما الحكومات بوجهها سوى قوات مادية ارضية لا قدر لها ولا قيمة . وهي شديدة على العظمة والعظماء والغنى والاغنياء . ولكن اذا كان يسوع قد حارب اولئك وهؤلاء فما حاربهم ليصرف غناهم وعظمتهم الى غيرهم ولكن لازالة تلك العظمة وهذا الغنى لانهما اصل كثير من الجرائم والشرور . وكان اذا اخبر تلامذته بانه سيكون له شان مع الشرطة تكلم عن ذلك بلهجة تدل على انه لم يكن يحسب نقيصة ولا عاراً الوقوف لدى الشرطة والذهاب للمحاكمة . ولم يوص تلامذته قط بمقاومة الشرطة ومقابلة القوة بالقوة لانه كان يعلم ان الشر لا يقاوم بالشر وان الانسان لا يتغلب الا بالاتضاع والمسالمة وانكار الذات والعذاب . وهذا الفكر فكر تعذب الانسان واحتمال عذابه ليقوى به على القوة المادية التي تعذبه فكر سام خاص بيسوع وحده

ولكن اذا كان العظماء والكبراء والاغنياء والكتبة والفريسيون والكهنة لا يدخلون ملكوت الله لانهم مشغولون عنه بما في ايديهم فمن يدخله ؟ يدخله ابناء الشعب والمتواضعون والضعفاء والفقراء والنساء والاولاد . ومن ينشئ ملكوت الله اذا كان اولئك الكبراء والاغنياء يحيدون عنه ولا يسمحون لمن يدعوهم اليه ؟ ينشئه هؤلاء الضعفاء والفقراء والنساء والاولاد . بهم يتغير وجه الكرة الارضية . بهم تحدث ثورة عظمى في العالم . وهذه الثورة

تضع الكبار وترفع الصغار وتطأطئ الجباه العالية

الفصل السابع

في كفر ناحوم والمعابد اليهودية القديمة

وبعد مدة انتقل يسوع الى كفر ناحوم واقام فيها وكان عمره ٣٠ عاماً

ولم يكن قبل هذا الحين قد علّم تعليماً عمومياً بل خصوصياً فاخذ في التعليم العمومي جاعلاً كفر ناحوم مركزاً لتعليمه ووطناً ثانياً له

وكفر ناحوم هذه مشتقة من كلمتين (كفر) (وناحوم) ومعناها قرية ناحوم وكانت قبله قرية خاملة كالناصرة لم تشتهر بشيء ولم يرد لها ذكر في كتب يوسيفوس الا مرة واحدة ولكنها لم تكن المقصودة بهذه الاشارة بل كانت المقصودة بركة ماء بقربها وهذا يدل على شدة خمولها قبل يسوع لان بركة الماء كانت اشهر منها . وكانت كفر ناحوم مبنية على الطريقة اليهودية اي انه لم يكن فيها شيء من آثار المدنية الرومانية الشائقة التي اقامتها اسرة هيرودس في نواحي فلسطين كالتماثيل الرائقة والابنية الفخيمة التي لا يزال رجال الآثار يعجبون بها الى هذه الايام . وقد سماها اليهود بعد المسيح « مدينة المينيم » اي المراطقة . يعنون المسيحيين

وكان سكان تلك البلاد الجميلة يجتمعون مرة في كل اسبوع وذلك في يوم السبت للصلاة ومطالعة كتبهم الدينية . وكان اجتماعهم في كل قرية في مكان يدعونه « مكان الاجتماع » او معبد . وكان هذا المكان عبارة عن قاعة مربعة الزوايا فاتنها وهي مزينة على الطريقة اليونانية اذ لم يكن لليهود طريقة خاصة . ولا يزال في نواحي الجليل الى هذه الايام كثير من بقايا المعابد اليهودية القديمة . وقد كان يوضع في داخلها مقاعد للجلوس ومنبر للقراءة وخزانة لوضع الكتب المقدسة . وكانت هذه المعابد نقطة عمومية يجتمع فيها اليهود مرة في الاسبوع كما تقدم لقراءة الشريعة واقوال الانبياء . وبما انه لم يكن لليهود في خارج اورشليم كهنة فقد كان لكل واحد الحق في ان يصعد الى المنبر ويقرأ للناس ويفسر القراءة لهم كما يريد . وكان لكل واحد من الحاضرين ان يعترض على القارئ وتفسيره وبذلك ما كان يجعل هذا الاجتماع عبارة عن مجمع حر يتبادل اعضاؤه آراءهم وافكارهم . وكان لهذا المجمع رئيس وشيوخ وحزان وهو القارئ وقد تقدم انه

المعلم ورسل وهم مراسلون او سعاة يتقدمهم رجال التعبد وشماس او حافظ الاشياء المقدسة والمعتني بها . وبذلك كانت المعابد اليهودية في فلسطين شبيهة بجمهوريات صغيرة مستقلة . وكان لها نظام شامل لكثير من شؤون حياة اليهود حتى انها كانت تصدر قرارات بشأن بعض الافراد وتنفذها فيهم على يد الحزان . وكثيرًا ما كان في جملة هذه القرارات العقاب بالضرب . على ان هذه المعابد المنظمة التي كانت منتشرة في جميع انحاء فلسطين هي التي حفظت التقاليد اليهودية منذ الوقت من السنين واوصلتها الى هذه الايام دون ان يؤثر فيها ما حل بالبهود من الاضطهاد في اثناء القرون الطوال الماضية . وكان الجلوس في كرسي في مقدمة الجالسين دليلاً على امتياز الجالس بالغنى او بالتقوى . وكان حق الصعود الى المنبر مطلقًا لكل طالب فكان ذلك باعثًا عظيمًا على تسهيل نشر الآراء الجديدة . وهذا مما سهل ليسوع اظهار تعليمه

فانه لما اراد القراءة والتعليم اول مرة في معبد صعد الى المنبر فقدم له الحزان الكتاب المقدس فقبله يسوع وهو واقف امام الحاضرين رابط الجاش تارة ينظر اليهم بعينيه المهيبتين وتارة ينظر الى الكتاب . ثم اخذ يقرأه ويفسر . ولكن تفسيره كان مختلفًا عن تفسير باقي القراء وتفسيره جديد على جمهور السامعين . وبما ان الفريسيين كانوا قليلي العدد في جهات الجليل فقد كان ما لقيه منهم من المعارضة في المرة الاولى خفيفًا جدًا ولكنه لو ابتداء تعليمه في اورشليم لما استطاع ان يعلم وقتًا طويلاً بل كان الفريسيون وغلاة الدين اوقفوه عند الخطبة الاولى وحالوا بينه وبين الشعب قبل ان تؤثر فيه كلماته السحرية

ذلك ان كلام يسوع كان عذبًا رقيقًا . وكان صوته مؤثرًا في النفوس وبلاغته تتدفق تدفقًا . وكان اسلوبه في الكلام والخطابة واضحًا بسيطًا سهلاً ينم على ما في نفسه من المحبة والرزانة وحب نصرة الضعفاء . فكان صوته يفعل في نفس الشعب فعلاً غريبًا وكلامه ينطبق انطباقًا عظيمًا على ما في نفوسهم وتصوراتهم البسيطة اللطيفة . وذلك بخلاف ما كان عليه وعاظ اليهود يومئذ من الكلام الجاف الناشف الذي لا يؤثر في النفس ولا يحركها . وهكذا لم يمض وقت طويل حتى صار للمعلم الشاب سلطة كبيرة على الشعب . وكان قد حصر تعليمه في بحيرة طبريا وشواطئها وكانت تلك الجهات يومئذ في احسن حالات الخصب والاقبال خلافًا لما هي عليه اليوم من الخراب والجفاف . ويجدر بنا هنا ان نصفها وصف من زارها ورآها

الفصل الثامن

المدن الخمس على شاطئ بحيرة طبريا

كان على شواطئ بحيرة طبريا في ذلك الزمان خمس مدن صغيرة خلد التاريخ اسماءها كما خلد اسمي رومه واثينا . وهذه المدن هي مجدله ودالمانوثه وكفرناحوم وبيت صيدا وكورزين . اما الآن فلم يعد معروفاً من تلك المدن الصغيرة غير مدينة مجدلة التي منها مريم المجدلية وهي اليوم قرية حقيرة . واما باقي المدن المذكورة فقد طمس الزمان آثارها . فان دالمانوثه مجهولة المكان وغير بعيد ان تكون كورزين مدفونة تحت التراب في الجانب الشمالي . بقيت كفرناحوم وبيت صيدا وقد ظن بعضهم انهما كانتا حيث اليوم تل حوم وعين التين وخان منيه والعين المدورة ولكن ذلك افتراض لا دليل عليه . فكأن كل شيء في تاريخ الحوادث المسيحية ساعد على امحاء آثار صاحب الشريعة الاولى . ومن المحتمل ان لا يكتشف البشر في مستقبل الزمان تلك الآثار التي تود الانسانية ان تقبلها وتقبل مواطئ قدمي الاله فيها

ولم يبق في تلك الجهات من المدن المذكورة غير البحيرة والبحيرات الصغيرة والانهار البرية وجو السماء . اما الاشجار فقد انقرضت كلها مع ان تلك الجهات كانت مشهورة بالخصب حتى ان يوسيفوس عدها في تاريخه من العجائب لانه كان يجتمع في ارضها الشجر التي تنمو في الاقاليم الباردة والشجر التي تنمو في الاقاليم الحارة والشجر التي تنمو في الاقاليم المعتدلة ولذلك كان الزهر دائماً فيها . واما الآن فيكفي للدلالة على ما فيها من الخراب والجفاف ان يقال ان السكان يبحثون قبل سفرهم فيها بيوم واحد عن المكان الذي يستطيعون ان يجدوا فيه شجرة واحدة تظللهم من الشمس في اثناء سفرهم . وقد اصبحت شواطئ البحيرة قفراء ولم ار عليها حين زيارتي لها سوى زورق واحد صغير يروح ويجيء فوق امواجها التي كانت من قبل تحمل السفن والناس فيها يلعبون ويفرحون ويتنزهون ويتصيدون . ولكن مياه البحيرة لا تزال كما كانت صافية خفيفة . وعلى البحيرة اسراب كثيرة من الطيور السابحة تتداعب فيها . اما حرارة الهواء على شواطئ البحيرة فانها ثقيلة مرهقة . وانخفاض هذه البحيرة عن سطح البحر مائة و١٩٠ متراً كما قدر العلماء فمن رأى الذي يزورها ويحس بما في جوها من الحرارة المرهقة يستغرب انها كانت في الزمن الماضي مركزاً لحركات عظيمة لان حرارة الجو في مكان تخمد همة سكانه . ولكن يوسيفوس

روى ان هواءها كان معتدلاً في ذلك الزمان . ولا غرابة في ذلك فان الخصب الذي كان فيها من حيث نمو الاشجار والنبات جدير بان يلطف الهواء ويخفف وطأة «المناخ» . ولعله قد حدث في جوها من التغيير ما حدث في جو برية رومة من هذا القبيل . واما اسباب الجفاف الحالي والخراب الحاضر فهي الحروب والفتن . فانه بعد انقلاب الصليبيين عملت عوامل الخراب في تلك الجهات فاكلت الاخضر واليابس . فهل دريت ارض جنيسارة حين كانت يمشي عليها السيد ولا مدته ان هذه الاقدام الخفيفة ستكون سبباً في خرابها الآتي . هل علمت الاماكن التي كانت وطناً ليسوع انها ستبتاع مجدها وشهرتها الخالدة بخرابها وتلاشيها من الوجود

فعمل المسيح اذاً كان مقصوراً في بدء الامر على هذه المدن الخمس الصغيرة . ولا يحتمل ان يكون المسيح قد دخل الى مدينة طبرية لان اكثر سكان هذه المدينة كانوا من الوثنيين وفيهم الفينيقيون والسوريون والعرب واليونان . وكانت هذه المدينة مقام الحاكم انتيباس والي بيريا والجليل وساجن يوحنا المعمدان . ولكن يسوع كان كثيراً ما يرحل عن تلك الجهات المحبوبة اليه فيركب زورقاً الى شاطيء البحيرة الشرقي ليزور جرجسة مثلاً او يسير في الجانب الشمالي الى قيصرية فيلبس في سفح جبل حرمون . ولقد سار مرة الى صور وصيدا المدينتين الفينيقيتين وكانتا يومئذ في ابان مجدهما وعزهما . وغير بعيد ان يكون قد زار في قيصرية مغارة بانيوم التي كانوا يزعمون بان نهر الاردن ينبع منها والهيكل الرخامي البديع الذي بناه هيرودس الكبير قريباً من هناك اكراماً لاغسطس قيصر . ولكنه لم يكن يرتاح الى هذه البلاد وان كانت غنية ولذلك كان يسرع الى شاطيء جنيسارة المحبوب اليه في وسط تلك الطبيعة الضاحكة التي ربي فيها

الفصل التاسع

التلامذة

في هذا المكان الذي يجوز ان يلقب قطعة من الجنة لان كل شيء فيه كان هادئاً جميلاً لعدم وصول الثورات التي قلبت وجه العالم اليه — في هذا المكان كان يعيش شعب هادىء نشيط مستقيم طروب للحياة ولذتها واخلاقه منطبقة على الطبيعة التي حوله . وكانت بحيرة طبرية مشهورة بكثرة سمكها فكان السكان يصطادون منه كثيراً وقد انشأوا في

كفرناحوم وبيت صيدا مصائد عظيمة عادت عليهم بسعة الرزق وكثرة الخيرات . وكانت معيشة هؤلاء الصيادين الطف معيشة وابسطها وكانوا مرتبطين بعضهم ببعض برباط القربى لانهم كانوا يتزوجون بعضهم من بعض . ولم يكن قد دخل الى بلادهم شيء من آثار المدنية اليونانية والعالمية ولكن عاداتهم كانت حسنة واخلاقهم هادئة وربما كانوا يشبهون سكان جبل لبنان في هذا الزمان . ففي هذا الوسط اقام يسوع وترك وطنه الناصرة لانه لم يجد فيها الاكرام الذي كان من حقه . وفي ذلك يقول « ليس لنبي كرامة في وطنه »

وكان في كفرناحوم بيت امتاز باكرام السيد وهو الصياد بن يدعيان اندراوس وسمعان بطرس . فاقام يسوع فيه رخي البال مكرماً محترماً . وكان فيها بيت آخر لزبدة وكان له ولدان يعقوب ويوحنا وامرأة تدعى صالومه كانت اشد الناس اتباعاً للسيد . ذلك ان النساء كن كثيرات الاكرام ليسوع لان جماله المهيب ولطفه وحسن معاملته لهن واحترامه في الكلام معهن كانت تجذب القلوب اليه . ولم يكن الانفصال تاماً بين الرجال والنساء في القرى اليهودية كما كان في المدن ولذلك انضم الى تلامذة المسيح ثلاثة من النساء ممن نادى يسوع جمالاً ورواء . وكانت بينهن واحدة من مجدل وهي مريم المجدلية وكانت من عصبيات المزاج الشديدات التأثر والانفعال فتمكن يسوع بنظره الهادىء اللطيف وجماله الطاهر نفس هذه المرأة المضطربة . ثم انضم الى تلامذته متى وفيلبوس ونثنائيل وتوما وغيرهم وفي جملتهم يهوذا الخريوطي نسبة الى خريوط وهي قرية في اقصى جنوبي بلاد اليهودية على مسيرة يوم من حبرون . وكان جميع تلامذته من اهالي بلاد الجليل الا يهوذا هذا

واما نسبة التلامذة بعضهم الى بعض فقد كانت واحدة . فان المساواة كانت عاماً في هذه الهيئة الناشئة . وكل واحد يجب عليه ان يلقب الآخر « اخاه » اما لقب « ربي » الذي معناه معلم ولقب « ابي » فقد كانا محرمين بينهم لانه ما من معلم غير يسوع وما من اب غير الله . والكبير فيهم يجب ان يكون خادمهم . ومع ذلك فقد امتاز منهم بطرس بالاقدمية من حيث علاقته بيسوع . فان السيد كان يقيم في منزله وكان يعظ في سفينته فكان منزله وسفينته مركزاً للوعظ والتعليم . وكان بطرس رجلاً صادقاً مخلصاً بسيطاً يندفع لاول اشارة من السيد . فكانت هذه الاخلاق تعجبه كثيراً . فالظاهر ان صالومه امرأة زبدة حسدت يوماً بطرس على مقامه فانفردت بالسيد وسالته ان يجعل

وطنيها في المنزلة الاولى بعده · فاجابها يسوع ان الذي يروم الاستعلاء يسقط وان الملكوت لله للمتواضعين · وبذلك صرفها عن طلبها · وما درى باقي التلامذة بما سألته حاولوه استهجنوا حدّاً منها

فما مرّ يتضح ان اكثر تلامذة المسيح كانوا صيادين سمك · ولكن لم يكن صيد السمك في الجليل في ذلك الزمان الشأن الحقير الذي له في هذه الايام · ولم يكن ليسوع تلامذة من العشارين غير لاوي وربما الرسول متى ايضاً · وكانت وظيفة العشارين اي جباة الضرائب مكروهة الى اليهود في ذلك الزمان اشد كراهة لما تقدم من تقسيم الضرائب والاعشار لانها دليل على عبودية الانسان للانسان · وكان احدهم اذا رضي وصار عشاراً قطع اهله ورفقته كل علاقة لهم به ومنعوا الناس من معاملته والذهاب الى منزله لانهم يميلون الى نقودهم منه كما ورد في التلمود · وكانوا يعدّون العشارين ومختلسي الجزية وما اشبههم من جملة اللصوص وقطاع الطرق · واذا توفي واحد منهم اوصى كانت وصيته فاسدة · وكانت الطريق الرومانية الكبرى الموصلة بين عكا ودمشق الشام والتي هي من اقدم الطرق في العالم تمتد في الجليل بجانب بحيرة طبرية كما روى الانجيلي متى (الاصحاح الرابع عدد ١٣ – ١٥) وكانوا يسمونها في زمن الحروب الصليبية « طريق البحر » · فكان يمرّ في هذه الطريق كثيرون من مختلسي الجزية والعشارين · وكان في جملتهم عشار يُدعى لاوي فالتقى يسوع ودعاه الى مائدته فلبّى يسوع وذهب الى مائدته مع تلامذته · فكان لذلك تأثير عظيم في نفوس كهان اليهود كما جاء في التلمود · اما يسوع لم يبالِ بهم لانه اراد بذلك ان يدلهم على ان الله لا يطلب من البشر سوى طهارة القلب ونقاء الباطن

الفصل العاشر

اصحاب يسوع

تلك كانت الحلقة التي كانت تحيط بيسوع على شواطئ بحيرة طبرية · وكانت جودة الهواء في تلك الجهات تجعل حياة هولاء البسطاء تودعاً وعيداً دائماً · فانهم كانوا في النهار يركبون بحيرة ترقص امواجها كما تهز الام سرير اولادها وفي المساء يجلسون او يستلقون على شاطئها يتحدثون ويتباحثون · فكانت معيشتهم كلها في الخلاء والهواء · وكان التلامذة يقطفون في ذلك الاوان زهرة تعاليم السيد اول نبتها ويتمتعون بارجها · وكان اذا بدا في نفس احدهم شك او ريب ازال المعلم العظيم ذلك الشك بفكرة واحدة لطيفة

او بسمة واحدة . وكل غمامة كانت تمر في جو السماء وكل حبة كانت تنبت امامهم في البرية وكل سنبلة كانت تنضج وتصفرّ في الحقول كانت دليلاً على تقدم العالم ودنو ملكوت الله . وكانوا في هذه النزهات الجميلة يسمعون من فم المعلم العظيم هذه التعزية الكبرى التي يزول العالم ولا تزول

« طوبى للمساكين بالروح لان لهم ملكوت السماوات

« طوبى للحزانى لانهم يتعزون

« طوبى للودعاء لانهم يرثون الارض

« طوبى للجياع والعطاش الى البر لانهم يشبعون

« طوبى للرحماء لانهم يُرحمون

« طوبى للانقياء القلب لانهم يعاينون الله

« طوبى لصانعي السلام لانهم ابناء الله يُدعون

« طوبى للمطرودين من اجل البر لان لهم ملكوت السماوات

وكان تعليمه حلواً يأخذ بمجامع القلوب وشبيهاً في ريحه بريح الازهار في الحقول . وكان يسوع يحب هذه الازهار حباً شديداً ويتمثل بها . وهو اول من ابتدع الوعظ بالامثال اللطيفة الجميلة . نعم ان في الكتب البوذية كثيراً من الامثال تشبه الامثال المسيحية ولكن لم يقم دليل قط على انه كان للديانة البوذية تأثير على الديانة المسيحية او كان لها علاقة بها

وكانت الطبيعة في الجليل بسيطة والهواء معتدلاً والعمل في زراعة الارض لا يأتي باجرة تساوي التعب فيها فلم تكن تمس الحاجة كثيراً الى الطعام الكثير واللبس الداقّ والعمل بل كانت القناعة والاكتفاء شعار السكان كلهم . فكان ذلك يوحي الى المعلم العظيم آيات لم يخط مثلها قلم على قرطاس فكان يقول

« لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون . بل اكنزوا لكم كنوزاً في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون . لانه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك ايضاً . لا يقدر احد ان يخدم سيدين لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر او يلازم الواحد ويحتقر الآخر . لا تقدرون ان تخدموا الله ومون (١) . لذلك اقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما

(١) مون اله المال والكنوز المدفونة عند الفينيقيين والسوريين القدماء

تاكلون وبما تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون اليست الحيوة افضل من الطعام والجسد افضل من اللباس . انظروا الى طيور السماء انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع الى مخازن وابوكم السماوي يقوتها . الستم انتم بالحري افضل منها . ومن منكم اذا اهتم يقدر ان يزيد على قامته ذراعاً واحدة . ولماذا تهتمون باللباس تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو لا تتعب ولا تغزل . ولكن اقول لكم انه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها . فان كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ويطرح غداً في التنور يلبسه الله هكذا افليس بالحري جداً يلبسكم انتم يا قليلي الايمان . فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل او ماذا نشرب او ماذا نلبس . فان هذه كلها تطلبها الامم لان اباكم السماوي يعلم انكم تحتاجون الى هذه كلها . لكن اطلبوا اولاً ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم . فلا تهتموا للغد لان الغد يهتم بما لنفسه يكفي اليوم شره »

فهذا التعليم وهذه المبادئ كان لها تأثير عظيم على الجمعية المسيحية الاولى . فان التلامذة صاروا يعتبرون الاهتمام بالحياة والمعيشة شراً يخنق في نفس الانسان كل خير . وحسبهم ان يسألوا الله في كل يوم خبز الغد . اما كنز الكنوز وتوفير الاموال فكان امراً قريباً من العبث . ومما كان يقوّي هذه المبادئ انتشار اللصوصية في تلك البلاد وكثرة السلبة وقطاع الطرق كما رواه يوسيفوس . فان الغني لم يكن على ثقة من غناه ولذلك كان في خوف دائم من فقده . واما الفقير فانه كان مستريح البال لانه لا يخشى من اللصوص على شيء اذ لم يكن يملك شيئاً . وبناء عليه كان الفقير كأنه اغنى من الغني . واما في هيئتنا الاجتماعية الحاضرة فان حالة الفقير لا تحتمل . فان الغني عندنا على ثقة من ماله والخيرات والازهار والاثمار لاصحاب الاملاك دون سواهم . وذلك بخلاف الشرق فان الازهار والاثمار والخيرات شائعة فيه للكل ولا يملك صاحب الملك من الارض الا شيئاً محدوداً . واما الطبيعة فانها ملك الجميع

على ان المسيحية لم تكن في ذلك الامر الا مقلدة لطائفة الابيونيين اليهودية وهذه الطائفة كانت مقلدة لطائفة الفيثاغوريين اليونانية . وكان البخل هو الرذيلة الكبرى في اعتبار الطائفة المسيحية الاولى . والمراد بالبخل هنا اقتناء الملك والمال . ولذلك كان اول ما يجب على الذين يرغبون في اتباع السيد والانضمام الى تلامذته لينالوا ملكوت الله ان يتنازلوا عن املاكهم واموالهم اما هبة للفقراء والمساكين او الى الجمعية المسيحية . واذا لم يصنعوا ذلك لم يكن لهم ان يدعوا انفسهم تلامذة المسيح . فكان ذلك بمثابة « اشتراك في الملك والمال » . ولكن لم يلبث ان ظهر ضرر هذه الطريقة . فان اجتماع الاموال لدى الطائفة

المسيحية اوجب تعيين امين لحفظها فاختار والثلث يهوذا الاسخريوطي ولكنه لم يلبث ان اتهم بسرقة المال المشترك

والارجح ان يكون ظهور رغبة يسوع في سحق الغنى في مثل الغني ولعازر الفقير الذي كان يأكل من فتات مائدته . فان الغني احيل الى النار ولعازر الى السماء . ولماذا ذلك ؟ لان الاول غني تمتع بخيرات الارض ولم يعطها الى الفقراء . اما قولهم ان المقصود بهذا المثل هو الغني الشرير فقط فتأويل لا مسوّغ له وهو من الموضوعات بعد يسوع . ولا سيما وانه قد قال ايضاً : ايسر للجمل ان يدخل في ثقب ابرة من ان يدخل الغني ملكوت السماوات

على انه لو كانت هذه التعاليم ملائمة لحالة تلك البلاد يومئذٍ والهيئة الاجتماعية اذ ذاك فانها لم تكن ملائمة للحالة الاجتماعية في كل مكان . وقد جاء وقت رأت فيه المسيحية نفسها مضطرة الى قبول الاغنياء في حضنها . ولكن حسبها فخراً انها كانت في اول امرها مملكة الفقراء . وقد كان لقب فقير شرفاً للاملفين وكانوا يلقبون به دون سواه . وقد اصبحت الصداقة بذلك فضيلة وصناعة مقدسة . ولا يزال شيء من هذه الحالة في الديانة المسيحية الى هذه الايام . وقد كان تأثير هذا الامر عظيماً جداً ولا سيما في نفوس الطبقات السفلى المزحومة تحت احمال الحياة . فان الانجيل كان لهذه الطبقات بمثابة نسمة في سقف تجتهد لتشمّ منه ريح النسيم وتنظر وجه السماء . فكان لها اجمل تعزية واعظم تسلية . ولا مرية في ان هذا الامر لا ينطبق على حالة الاجتماع ولا يوافق قواعد الاقتصاد السياسي ولكن رفع ثوب الفقير الى هذه الدرجة من السمو وجعل الفقر رمزاً الى المحبة والاخلاص امر جدير بكل اعتبار . فان الانسانية ترغب في ان تعلم انها تستوفي حقها بقبضها اجرتها بل لها هنالك حق آخر . فان ذلك مما يساعدها على حمل اعبائها . واعظم ما تقدم به تعليمها انها لا تحيى بالخبز فقط بل هنالك شيء سواه

الفصل الحادي عشر

النساء والاولاد والشعب

وكان يسوع محباً للشعب لانه عالم ان ملكوته لا يسود الا به فكان يؤثر معاشرة الضعفاء والفقراء والعشارين والمنبوذين على معاشرة السراة والاكابر . وكان يطوف الجليل راكباً على بغلة جرياً على عادة الشرقيين الذين يتخذون للسفر بغالاً ذات عيون سوداء حولها اهداب طويلة تجعل لها منظراً لطيفاً جداً . وكان التلامذة يفرشون ثيابهم تارةً

في طريقه جنازة على ظهر البغلة ، بيتي وصلوا الى احدى القرى ونزلوا في بيت صار ذلك البيت مباركا واجتمع فيه كل اهل القرية لان بيوت الضيوف في الشرق مجتمع لجميع الناس . وكان اكثر الناس اجتماعا عليه النساء والاولاد . وكان يسوع يحب الاولاد حبا شديدا . واتفق ان تلامذته ارادوا ذات يوم ان يبعدوهم عنه فرارا من ضوضائهم فقال لهم يسوع كلمته المشهورة « دعوا الاولاد يأتون اليّ لان لمثل هؤلاء ملكوت السماوات » . وقد حدث في ذات يوم خلاف بين التلامذة بشأن التقدم والرتبة فاخذ يسوع ولدا واقامه في وسطهم ثم قال لهم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل هذا الولد اي في البساطة والطهارة والتواضع والحب فلن تدخلوا ملكوت السماوات . وكان الاولاد يزدحمون من كل جانب ويهتفون له « اوصنا لابن داود » فكان يرونه مناقبهم . وبذلك كان بدء ظهوره عبارة عن حركة يقوم بها النساء والاولاد . ولا يخفى ان كل قوى النفس الانسانية وكل ما في القلب البشري من طهارة وحب وبساطة مجموع في هذين الفريقين

فكان ملك السيد يومئذ كملك الاولاد وكأنه رام الاستيلاء بهم على العالم اجمع . فما كان اجمل ذلك الزمان العظيم . وما اجمل ان تنفي النفس الانسانية ولو لحظة وحدة تلك القيود المادية التي تقيدها بهذه الارض وتنزع الى العلى . وما اسعد اولئك الذين شهدوا باعينهم هذا المشهد الالهي واشتركوا في تلك الآمال الحقيقية . ولكن اسعد منهم كلهم ذلك الذي ينفض عنه غبار كل وهم وشر ويرتقي عملا بقول يسوع ويعيد في نفسه بواسطة نقاء باطنه وصفاء ضميره وقوة ارادته تلك الصورة الالهية التي هي ملكوت الله

الفصل الثاني عشر

مقتل يوحنا المعمدان

ولما انتشرت شهرة الملك العظيم هذا الانتشار بلغت الى يوحنا المعمدان في سجنه فبعث اليه اثنين من تلامذته يسألانه « هل انت الآتي ام ننتظر آخر » فلما قدم التلميذان عليه وجدا حوله ضوضاء الاحتفال والافراح والمآدب فعجبا من ذلك كما قال الانجيلي في الاصحاح التاسع . لان معلمهما يوحنا كان لا يأكل ولا يشرب الا ما كان ضروريا لقيام الجسم . ولسنا نعلم الجواب الذي جاوب به يسوع تلميذي يوحنا . وكذلك لا نعلم اذا كانا قد وجدا يوحنا في قيد الحياة حين عودتهما بالجواب او ان انتيباس كان قد امر بقتله . وقصة مقتل يوحنا مشهورة فان هذا الرجل الصارم كان في محادثاته مع انتيباس يقول له دائما انه قد اساء

الى الشريعة اليهودية بزواجه من هيروديا · فزاد ذلك في حنق هيروديا عليه · وكان لهيروديا ابنة من زوجها الاول تدعى صالومه · ففي يوم تذكار مولد انتيباس اقام هذا الملك احتفالاً في قلعة ماكرو في القصر الجميل الذي بناه هيرودس الكبير فيها كما روى يوسيفوس · فقامت صالومه بايعاز من امها ورقصت في الحفلة احدى الرقصات المشهورة في الشرق بكونها غير ادبية · فطرب انتيباس اشد طرب من هذه الرقصة وقال لها اطلبي فاني اعطيك ما تشائين · فطلبت رأس يوحنا المعمدان · فاستاء انتيباس من هذا الطلب ولكنه كره ان يردها فامر احد حراسه فذهب وجاء برأس يوحنا على طبق

فكانَ هذا الشيخ الجليل اول شهيد من شهداء الديانة المسيحية · وكانت جثته اول جثة وُضعت في الطريق الدموية التي سلكها تلامذة السيد لفتحها لهم · وذلك مما جعل يوحنا حلقة وصل بين العالم القديم والعالم الجديد

وقد سخط الشعب اليهودي من صنع انتيباس وغزا الحارث امير العرب الذي كانت ابنته زوجة انتيباس قبل اقترانه بهيروديا مملكة هذا الملك للانتقام لابنته واسترداد قلعة ماكرو منه فانكسر انتيباس في هذه الحرب وقد عدّ الشعب اليهودي هذا الانكسار عقاباً له على ما صنعه بيوحنا المعمدان

واما تلامذة يوحنا فانهم اخذوا جثته ودفنوها وقد عاش مذهبه بعده فلم يمت بموته ولكنه لم يعش وقتاً طويلاً بل انطفأ شيئاً فشيئاً بعد انتشار الديانة المسيحية لان المسيحيين اصبحوا يعتبرون انصاره خارجين عن المسيحية · وكان اليهود ينكرون نبي · مسياه استناداً الى ان ايليا لم يأتِ كما تنبأ دانيال فكان المسيحيون يجيبون بان يوحنا هو ايليا

الفصل الثالث عشر

يسوع في اورشليم · مباني اورشليم القديمة · الهيكل الكبير ووصفه · الكهنة اليهود والشعب · تعاليمه في الهيكل · رأي حكيم

وكان يسوع يذهب الى اورشليم مع حجاج اليهود في كل عام تقريباً · واول مرة طالت الاقامة فيها كانت على ما يظهر في عام ٣١ بعد ميلاده اي بعد مقتل يوحنا المعمدان · وكان يسوع يحج مع حجاج اليهود لانه كره جرح عواطفهم والازدراء بالحج فضلاً عن معرفته ان الواجب القيام بعمل عظيم الخروج من بلاد الجليل والاقامة في اورشليم مركز اليهود لمهاجمة التقاليد اليهودية فيها

وكانت اورشليم في ذلك الزمان كما هي اليوم اي مدينة الجدال والدعوى والخصام والبغض والامور الصبيانية . وكان الفريسيون متسلطين على عقول اهلها . وكان اهتمامهم مصروفاً الى درس الشريعة اليهودية والمجادلة فيها باسلوب جاف خشن لا يغذي النفس ولا يهذب العقل . وكان الواحد منهم يقضي السنوات في درس القواعد والاصول القديمة حتى اذا وعى منها شيئاً انتفخ كبرياء وعظمةً بدعوى العلم . فكان الجليليون الذين يحجون من الجليل اليها لا يجدون فيها شيئاً مما كان في بلادهم من الهدوء الطبيعي والجمال ونقاء العيش . ومما كان يزيد الامهم ان يهود اورشليم كانوا يحتقرون يهود الجليل دونهم . وكان قولهم «الجليلي الاحمق» مضرباً للمثل عندهم لاعتقادهم الحمق والبلاهة في الجليليين . وكان من امثالهم ايضاً «هل يقوم من الناصرة رجل صالح» . وبالجملة فقد كانت الجليل محتقرة في نظرهم ولم يكن لها من شهادة في كتبهم غير قول اشعيا الذي اختلف مفسروهم في تفسيره وهو «ارض زبولون وارض نفتاليم طريق البحر عبر الاردن جليل الامم»

ومما زاد الم يسوع وتلامذته الجليليين في اورشليم جفاف الطبيعة حول هذه المدينة . فان ارضها كثيرة الحجارة جافة واوديتها لا ماء فيها . ومن يسرح طرفه فيها في جهات البحر الميت واراضيه القفراء يشعر شعوراً غريباً . فان هذا المنظر لو كان في مكان آخر لكان كريهاً متبوذاً ولكنه حول اورشليم جدير بالاعتبار والتامل لما يوحي الى النفس من الافكار المديدة . وكان منظر اورشليم في زمن يسوع كمنظرها اليوم تقريباً . فانه لم يكن لها من اثر قديم لان اليهود اقاموا حتى المكابيين (الاشمونيين) ولا شيء عندهم من الفنون الجميلة . ولكن لما قام ملكهم وكبير كهانهم هركان في عام ٧٩ قبل الميلاد اخذ يزين المدينة ويجملها . ثم جاء هيرودس الكبير فجعلها مدينة شائقة . وقد روى يوسيفوس ان الابنية الجميلة التي اقامها هيرودس الكبير فيها كانت شبيهة بالابنية العظيمة التي تخلفت عن العصور القديمة . وقد كان في ضواحي اورشليم في ذلك الزمن كثير من المدائن الجميلة مبنية على القواعد القديمة . اما يسوع فلم يكن يعبأ بهذه الآثار الجميلة لان عقله كان مشغولاً بالامور الروحية دون سواها ولم يكن له ميل الا الى ما له علاقة بالقلب

اما الهيكل العظيم فانه كان جديداً في ايام يسوع . فان هيرودس الكبير بدأ باعادة بنائه في عام ٢٠ — ٢١ قبل الميلاد . وقد اتم بناء صحن الهيكل نفسه في ١٨ شهراً كما روى يوسيفوس وانتهى بناء ابوابه واروقته في ثماني سنوات . اما ملحقاته فلم يتم بناؤها الا قبل سقوط اورشليم في ايدي الرومانيين بمدة يسيرة . وربما كان البناؤون حين زيارة يسوع

فما يبنون فيها . واذا كان قد شاهدهم يهدمونها فلا ريب ان ذلك اثار في نفسه عاطفة الاستياء لاعتباره تجديد بناء الهيكل دليلاً على تعلق اليهود بعوائد تقاليدهم . وفي ذلك اهانة لعباده

اما منظر الهيكل فقد كان في غاية الفخامة . واذا دخلت الى الحرم وجامع عمر في اورشليم وتأملت في فخامة هذين المكانين تخيلت جمال الهيكل اليهودي القديم لانهما قسم منه . اما المسيو دي فوكوه الذي ساح في فلسطين وكتب كتابه « هيكل اورشليم » في سنة ١٨٦٤ فانه يشك في ان الحرم والجامع كانا من اجزاء الهيكل

وكانت اروقة الهيكل وساحاته مجتمعاً لجمهور غفير من اليهود وكانت بمثابة محكمة لهم ومدرسة وساحة عمومية . فانهم كانوا يتباحثون فيها ويتجادلون ويتناظرون . وكان الرومانيون في ذلك الزمن يحترمون عادات اليهود فلم يكونوا يدخلون الهيكل . وقد نُقشت في اماكن مخصوصة في الهيكل كتابات باللغة اليونانية واللاتينية لمنع الذين ليسوا يهوداً من اجتياز حدود معلومة في ساحاته . وكان ضبط شؤون الهيكل الداخلية منوطاً برجال من اليهود دون الشرطة وكانت مفاتيح الابواب في يد ضابط منهم يتولى فتحها واقفالها ومنع الناس من الدخول الى الساحة الداخلية اذا كان في ايديهم عصي او كانت احذيتهم مغبرة او لاختصار الطريق في مرورهم من جانب الى جانب كما ورد في المشنا . ومما كانوا يهتمون به اشد اهتمام ايضاً منع الناس ولا سيما النساء من الدخول اذا لم يكونوا في حالة الطهارة التامة

في هذا المكان الواسع العظيم كان يصرف يسوع اوقاته مدة اقامته في اورشليم في ايام الحج . وكان اليهود يتواقفون في المواسم على هذا الهيكل تهافت الجراد ويقيمون في غرف متفرقة تسع كل واحدة منها عشرة اشخاص او عشرين كما روى يوسيفوس . فكان يسوع يدخل بينهم مع رفاقه التلامذة . وكانت اصول العبادة في الهيكل تستوجب بيعاً وشراء فهناك حيوانات تعرض للبيع لتقرب ذبيحة وهنالك موائد صيارفة لاستبدال النقود وذلك مما كان يجعل الهيكل منظر سوق عمومية . فهذه الشؤون المادية كانت تؤثر في نفس يسوع تأثيراً موئلاً لانها غريبة عن ديانة القلب والضمير التي جاء لتعليمها . وقد غضب يوماً غضباً شديداً مما كان يجري في الهيكل من البيع والشراء كما جاء في الانجيل فتناول سوطاً وطرد باعة الحيوانات وقلب موائد الصيارفة وهو يصيح ان بيت الصلاة لا يكون بيتاً للصوص . وبالجملة انه كان قليل الميل للهيكل وقد ورث تلامذته هذا الميل . ولم يعبأ بالهيكل احد من المسيحيين الا الذين كانوا مع اعتناقهم الدين المسيحي يتمون

متمسكين بالشريعة اليهودية . ولما قام الامبراطور قسطنطين والاباطرة المسيحيون الاولون تركوا في الهيكل ما بناه فيه ادريانوس من المباني الوثنية . ولم يهتم بالهيكل بعد سقوط اورشليم غير الاباطرة الذين كانوا اعداء الديانة المسيحية كالامبراطور جوليانوس . ولما فتحت اورشليم للعرب كان المسيحيون قد دنسوا الهيكل من بغضهم اليهود فامر الامام عمر باصلاحه واعادة شرفه اليه . كانما كتب لهذا المكان ان يبقى ضد الديانة المسيحية

اما اكليروس اليهود فكان يميل آخذاً في السقوط بقدر ارتفاع افكار الشعب الاسرائيلي . اي كلما كان الشعب يتهذب وتتسع افكاره كان الاكليروس ينحط في نظره وفي الحقيقة . ومما زاد انحطاطه اعتداء هيرودس الكبير عليه . فان هذا الملك العظيم احب فتاة تدعى مريم ابنة سمعان بن بوئيطوس من سكان الاسكندرية ورام الاقتران بها في عام ٢٨ قبل الميلاد . فرغبة في رفع شأن عائلتها جاء بابيها وجعله رئيساً لكهنة اليهود . وبذلك صارت رئاسة الكهنة بمثابة وظيفة تابعة للحكومة . وكانت رئاسة الكهنة قبل ذلك للصدوقيين فلما وليها بوئيطوس امتزج البوئيطوسيون بالصدوقيين وتألف من الفريقين اكليروس شره نهم لا يهتم بالامور الدينية الا في الظاهر وكل قواه مصروفة الى المطامع الشخصية والمطامع الذاتية . وقد بلغ من عدم احترام الشؤون الدينية عندهم ان صاروا يضحكون من الشعب في سرهم لبساطته حتى ما كانوا يدعونه اليوم يهزأون بالحجاج الذين كانوا يفدون من اقاصي البلاد لزيارة الاماكن التي كان زمامها في ايديهم . وكانوا يعيشون من الهيكل وهم يرون بطلان الشؤون التي كانت تدر الرزق عليهم . وكان احب الامور اليهم ان يتركهم الناس وشأنهم يفعلون ما يشتهون ويأخذون ما يأخذون . ولذلك كانوا يكرهون سماع كلمة الاصلاح والقداسة . ولم يكن من عدوهم غير الذي يقوم لتنبيه الشعب فان ذلك يكدر صفوهم ويحول بينهم وبين رزقهم ومطامعهم

لكن هذه الامور كانت لم تزل تمس يسوع حتى الغضب لكنه كان في بدء الامر يكتم ما يقوم في نفسه ولا يطلع عليه احداً غير خاصته . على انه مع ذلك اخذ يتكلم ويعلم في جملة المتكلمين والمعلمين في الهيكل . ولم يكتسب في بدء الامر غير صداقة عائلة في بيت عنيا ولم يعرف بغير مريم ام مرقس التي صار بيتها بعد بضع سنوات مجتمعاً للتلامذة ورجل يدعى نيقوديموس وهو من الفريسيين الاغنياء . وكان هذا الرجل كريماً شريف الاخلاق فمال ليسوع ولكنه لم يكن يزوره الا في الظلام فراراً من تعنيف الفريسيين . ولم يدخل

هذا الرجل يومئذ في الديانة المسيحية لانه خشي الدخول في حركة ثورية جديدة لم يكن قد دخل فيها احد من اكابر اليهود

اما اكابر علماء اليهود في ذلك الزمان فلم يلقَ يسوع احداً منهم لان الفيلسوفين هلل وشماي كانا قد فارقا الحياة ولم يكن من رجال كبير في الهيئة اليهودية يومئذ غير العالم « غمالائيل » حفيد هلل . وكان هذا الرجل ذا عقل مستقل حرّ محب للتساهل العالم بشؤون الحياة اليهودية وغير اليهودية . وكان من علامات تساهله انه كان يمشي في الشوارع مفتوح العينين وهو ينظر الى النساء حتى الوثنيات خلافاً للفريسيين الذين كانوا يمشون في الشوارع مغمضي العيون او يديهم على عيونهم لئلا يبصروا النساء . وقد ساعده ابناء جنسه على هذا التساهل كما ساعدوه على معرفته اللغة اليونانية لانه كان يخالط رجال البلاط . وبعد صلب يسوع وشروع تلامذته في التعليم في اورشليم رام الفريسيون سجنهم فقال لهم غمالائيل قولاً جميلاً . وقد جاء في اعمال الرسل بهذا الشأن ما يلي

« فقام في المجمع رجل فريسي اسمه غمالائيل معلم للناموس مكرَّم عند جميع الشعب وامر ان يخرج الرسل قليلاً ثم قال لهم : ايها الرجال الاسرائيليون احترزوا لانفسكم من هؤلاء الناس . فما انتم مزمعون ان تفعلوا . لانه قبل هذه الايام قام ثوداس قائلاً عن نفسه انه شيء . الذي التصق به عدد من الرجال نحو اربع مئة . الذي قتل وجميع الذين انقادوا اليه تبددوا وصاروا لا شيء . بعد هذا قام يهوذا الجليلي في ايام الاكتتاب وازاغ وراءه شعباً غفيراً فذاك ايضاً هلك وجميع الذين انقادوا اليه تشتتوا . والآن اقول لكم تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم . لانه ان كان هذا الرأي او هذا العمل من الناس فسوف ينتقض وان كان من الله فلا تقدرون ان تنقضوه . لئلا توجدوا محاربين لله ايضاً »

فما اجدر الاكليروس المسيحي ان يقول اليوم في الذين لا يرون رأيه ما كان يقوله اعداء الديانة المسيحية فيها

الفصل الرابع عشر

ديانة القلب وكراهة التقاليد • حفظ يوم السبت • معاشرة الوضيعين والمحتقرين •
[illegible] • يسوع والسامرية • والشريعة الادبية

ومنذ هذا الحين صار يسوع يرى وجوب افناء التقاليد اليهودية لا الاتفاق مع رجالها. فانه كان في هذه التقاليد ان الهيكل لا يدخله احد غير اليهود اما يسوع فاستغنى عنه • وكان فيها ان الشريعة اليهودية لم تسن الا لابناء ابرهيم اما يسوع فكان يقول ان كل رجل يقبلني ويحبني يصير ابناً لابرهيم وقد قال يوماً ان الله قادر ان يجعل من هذه الحجارة ابناء لابرهيم • فهو بهذا الكلام كان يقاوم كبرياء الانسان وتفاخره بحسبه ونسبه ويدعو كل البشر الى دين مبني على مكارم الاخلاق لا على الحسب والنسب • لقد كان بهذا الكلام ينادي بحقوق الانسان ويعلن للبشر ديانة البشر لا ديانة اليهود خلاص البشر لا خلاص اليهود • فما ابعد هذا عن تقدمه • لقد وُضعت به اسس ديانة القلب والاخاء • لقد صار موسى نبياً منسياً • وقُضي على الهيكل بخراب لا مردّ له

فبناء على ذلك كان يسوع يحتقر كل شيء لم يكن له علاقة بايمان القلب • وقد كان عدواً لدوداً للظاهرات المادية التي يقوم بها بعض المتعبدين • وكان يفضل الصفح عن اهانة على الذبيحة • وكل شريعته محصورة في هذه الكلمات : محبة الله والاحسان والصفح • وكان لا يعتبر الصلاة الا اذا كانت خارجة من القلب • وقد كان بعض من صغار العقول يظنون انهم يكرمونه بندائه « ربي ربي » اي يامعلم يامعلم فكان السيد يقول « ان هذه الشعب يكرمني بشفتيه ولكن قلبه بعيد عني » او « لماذا تدعونني يارب يارب وانتم لا تفعلون ما اقوله »

وكان حفظ يوم السبت (اي ترك كل عمل في هذا اليوم) القاعدة الكبرى التي بُنيت عليها تقاليد الفريسيين • وكان الشعب يعتقد يومئذ ان الطبيعة نفسها (تسبت) اي تقف عن كل عمل في يوم السبت • ومن اوهامهم في هذا الصدد ايضاً ان بعض الينابيع تقف عن الجري في يوم السبت • وقد نقل المؤرخ يوسيفوس هذه الرواية • وسبب هذا الزعم ان تلك الينابيع كانت تجري وتقف في مواعيد جرياً مع العوامل الطبيعية وهي تُعرف اليوم « بالينابيع المتقطعة » اي التي تجري حيناً وتنقطع حيناً

اما يسوع فانه لمكابرة الفريسيين واظهار اوهامهم كان لا يعبأ بيوم السبت • وكان يهزأ بما يأتونه من غسل واغتسال • فيقول لهم مثلاً • « هل تقدرون ان تغسلوا ارواحكم

ايضاً «ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان بل ان الذي يخرج من الفم هو الذي ينجس الانسان» او «ايها العميان الذين يقودون عمياناً احذروا السقوط في الحفرة» او «يا اولاد الافاعي كيف تقدرون ان تتكلموا بالصالحات وانتم اشرار . فانه من فضلة القلب يتكلم الفم»

وكان يسوع لم يكن يعبأ بحفظ السبت اظهاراً لاوهام الفريسيين فقد كان يجالس الوثنيين ويقبلهم ويثق بهم اكثر من ثقته باليهود انفسهم مع ان الفريسيين كانوا يبتعدون عنهم . وكان اذا لاموه لانه يعاشر الوثنيين اجابهم «اذا كان صاحب كرم مستاء من الذين استاجروا كرمه فماذا يصنع . لا ريب انه يأتي ويعطي الكرم الى آخرين» . وكان ايضاً يضرب الامثال بالسيد الذي دعا الناس الى العرس فلم يجيبوه فارسل عبيده يدعون الى عرسه الناس من قارعة الطريق . ومن اقواله ايضاً في هذا الشأن «اقول لكم ان كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع ابرهيم واسحق ويعقوب في ملكوت السماوات . واما بنو الملكوت (يعني ابناء اسرائيل) فيطرحون الى الظلمة الخارجية»

ومما لا شبهة فيه انه كان بين تلامذته كثيرون من الذين كان اليهود يدعونهم «هيلانيين» . وقد روى ذلك يوسيفوس . وكان اليهود يريدون بكلمة «هيلانيين» الوثنيين او اليهود الذين تعلموا اللغة اليونانية وقاموا بين اليونانيين او اليونانيين الذين اعتنقوا الشريعة الاسرائيلية كما روى الانجيل يوحنا (الاصحاح ١٢ العدد ٢٠) وربما كان كثيرون من تلامذة المسيح من العنصر الاخير

وكان يسوع يعامل السامريين كما كان يعامل الوثنيين . وقد كان اليهود يحتقرون السامريين لان هؤلاء كانوا لا يزالون يعتقدون بمذهب (غارزيم) الذي كان مخالفاً لمذهب اورشليم . وكان اليهود يعتبرون السامريين كالوثنيين ويبغضونهم فوق بغضهم لهؤلاء . وكانت السامرة محصورة بين ولايتي اليهودية والجليل كأنها شاءت ان تكون مضغوطة بينهما . اما يسوع فاحياناً كان يوصي تلامذته ان لا يذهبوا الى السامرة لان السامريين كانوا لا يحسنون مقابلته لظنهم انه مثل باقي اليهود الذين كانوا يسيئون اليهم واحياناً كان يمرّ هو بنفسه في بلادهم ويحادث بعضهم وقد نشأ له عدة تلامذة منهم (يوحنا ص ٤ ع ٣٩) . ومن ابلغ الامثال التي ضربها مثل في السامريين عن الرجل الذي عرّته اللصوص وجرحته على طريق اريحا . فقد مرّ به كاهن فرآه وذهب في سبيله ثم مرّ لاوي فرآه وذهب في

سبيله ثم جاء سامري فبادر اليه وضمد جرحه واركبه على دابته الى الفندق ، وبذلك كان السامري المحتقر المشنوء به افضل من الكاهن واللاوي . وعلى هذا القياس يكون الاحسان والرحمة والرفق قاعدة الاخاء بين البشر لا المذهب الديني

وكأن هذه المبادئ كانت حالة نفس يسوع حين عودته من الجليل الى اورشليم بعد المدة الطويلة التي صرفها فيها مع تلامذته . وكانت الطريق بين اورشليم والجليل تمتد على بعد نصف ساعة من نابلس (نابلس اليوم) - وكان حجاج اليهود يجتنبونها في عودتهم الى الجليل لانهم كانوا يكرهون مخالطة السامريين ومؤاكلتهم - ومن امثالهم في هذا الصدد " ان قطعة الخبز التي تأكلها من سامري هي قطعة من لحم خنزير " - ولذلك كان اليهود يتزودون الزاد قبل سفرهم من اورشليم ليمروا في السامرة كما روى يوسيفوس . اما يسوع فانه كان لا يعبأ بهذه الاوهام . فلما عاد من اورشليم الى الجليل ووصل قريباً من نابلس تعب فجلس يستريح على بئر هناك تدعى بئر يعقوب وسار التلامذة الى المدينة لابتياع الزاد

وكان الوقت منتصف النهار والطبيعة ساكنة هادئة في تلك الاماكن الجميلة - واذ خرجت من المدينة امرأة سامرية لتستقي من البئر . فخاطبها السيد وقال لها اعطيني ماء لاشرب . فدهشت السامرية لعلمها ان اليهود لا يطلبون شيئاً من السامريين ودخلت في الحديث معه . فعجبها حديثه ورأت انه نبي . واذ خشيت ان يبدأ بتعنيفها لانها تدين بدين السامريين لا اليهود سبقت وقالت له " يا سيد . ابؤنا عبدوا في هذا الجبل وانتم تقولون ان العبادة في اورشليم " فاجابها يسوع " ايتها المرأة . صدقيني انه قد جاءت الساعة التي لا يعبد فيها في هذا الجبل ولا في اورشليم بل ان العبادة الحقيقية تكون للآب في كل مكان بالحق والروح "

فهذه اول مرة تلفظ بها يسوع الكلمة الباهرة التي وضع بها الديانة الابدية . هذه اول مرة سمع بها العالم ان عبادة الله غير مقيدة بكاهن او وطن او زمان او مكان - هذه هي الديانة التي تدوم الى نهاية القرون والاجيال الآتية . واذا كان في الاجرام السماوية اجرام ماهولة واهلها على جانب من التمدن لا تكون ارقى من هذه الديانة مهما بلغوا من الارتقاء الانساني . ذلك ان هذه الديانة هي ديانة الانسانية كلها . وقد كانت كلمة يسوع " عبادة الله بالحق والروح " كبرق عظيم خفق في ظلمة داجية . واذا كانت الانسانية قد تحولت عن هذه الكلمة وصارت تشتغل عنها بالاوهام والخطاء والضلال فانها ستضطر الى العودة اليها لانها اساس كل ايمان ورجاء في هذا العالم

الفصل الخامس عشر

النبوات · العجائب · العلة المقدسة · ملكوت الله · الجوع العام · الفرق بين الاشتراكية والمسيحية · يعبد ملايين من الشعب

ولما عاد يسوع من اورشليم كان قد قطع في نفسه كل علاقة بمذهب اليهود واخذ يستعد للعمل العظيم الآتي وهو انشاء ملكوت الله · وكان قد عزم عليه وان ذهب فدى الناس وفداء · ذلك ان ملكوت الله لا ينشأ من غير مقاومة ومناهضة ولذلك كان لا بدّ من المقاومة والمناهضة · وكان روح الله فيه ملأه قوةً ونشاطاً · وكان الله في نظره اباً لكل الناس وكل واحد عليه ان يدعو الله « اباه » في صلاته · فبهذا التعليم وثب يسوع وثبة واحدة عن الحفرة القائمة بين المخلوق والخالق ووصل اليه

وكانت نبوات الانبياء عن قدوم المسيح شائعة بين اليهود ولكن الجامع لم تكن قد جمعتها في صفحة واحدة· ولذلك كان اليهود يطبقون اقوال الانبياء على الحالة في تلك الايام · اما العجائب فكان في السامرة رجل ساحر يُدعى سمعان وهو يصنع شيئاً كثيراً منها · وقد كان صنع العجائب امراً شائعاً في القديم · فان الفلاسفة الاسكندريين ومنهم يهوديون كانوا يزعمون انهم يصنعون العجائب · وقد روى ذلك اوناپوس وبوفيروس · وكان صنع العجائب معروفاً امراً اعتيادياً لان كل رجل فيه روح الله كان في اعتقادهم قادراً على ان يصنع شيئاً منها

وكانت صناعة الطب في المشرق في ذلك الزمان كما هي اليوم (كذا) فان اليهود في فلسطين كانوا يجهلون هذه الصناعة التي وضعها اليونان منذ خمسة قرون قبل ذلك التاريخ · وكان من الشائع في كل العالم لا في عالم اليهود فقط ان الشياطين تدخل في بعض الناس وتجعلهم يعملون بالرغم عنهم اشياء يكرهونها · ومن ذلك شيطان ورد ذكره في تقاليد الفرس وهو الذي يدخل في النساء ذوات الاميال غير المعتدلة · وقد اخذ اليهود ذلك عنهم وورد ذكر هذا الشيطان في سفر طوبيا · فهذا الشيطان صار سبباً في اثارة نفوس النساء اليهوديات وتوليد الهستيريا وغيرها من الامراض العصبية فيها · وكان قد ظهر قبل ذلك باربعة قرون ونصف كتاب لابقراط في الطب موضوعه « العلة المقدسة » يعني الهستيريا وفيه وصف اسباب هذه العلة وذكر دوائها · الا ان اليهود في فلسطين كانوا يجهلون صدور هذا الكتاب · وكان في اليهودية في ذلك الزمان كثيرون من المجانين وربما

كان ذلك ناشئاً عن شدة الحماس الديني الذي اشعل النفوس . وكان هؤلاء الهائمين يأوون الى المغاور والمغاريب في الجبال والاودية . وكان قليل من الرفق واللين كافياً لشفائهم . ولا يزال الناس في سوريا حتى عصرنا هذا يدعون «مجنوناً» كل من كان في افكاره شيء من الغرابة . وفي اصطلاحاتهم في الحديث قولهم لمن لا يعجبهم رأيه: انت مجنون

اما مدة تعليم يسوع فان الانجيلي يوحنا يجعلها سنتين او ثلاثاً . ومهما يكن من الامر فانها لا تتجاوز سبع سنوات لان بيلاطس قد عُزل قبل عيد الفصح من عام ٣٦ للميلاد . وكان يسوع يكرز باقتراب ملكوت الله . والمراد بذلك على ما في الانجيل قدوم المسيح لدينونة الناس في نهاية العالم . وطريقة ذلك ان يُقسم البشر قسمين قسم الصالحين وقسم الاشرار . اما الصالحون فيدخلون الى الاماكن المتبقة المعدة لهم منذ ابتداء العالم وهناك يلبسون النور ويجلسون على مائدة ابرهيم . اما الاشرار فانهم يذهبون الى «جهنم». وجهنم هذه هي وادٍ في غربي اورشليم . وكان اليهود يوقدون النار اولاً في هذا الوادي ويحتفلون بذلك على سبيل العبادة . ثم صار الوادي مكاناً للاقذار والنجاسة

ومهما يكن من هذا الامر فان يسوع بنى ملكوت الله وهو يكرز تلك الكرازة . وهذا الملكوت الحقيقي هو ملكوت العقل الذي يجعل كل انسان ملكاً وكاهناً معاً والذي كان كحبة الخردل زُرعت في الارض فانبتت شجرة عظيمة . هذا الملكوت هو : روح الله يرفرف على الارض بعد مجيئه . وخطبة السيد على الجبل . وتقوية الضعفاء بذكر الغبطة والسعادة الابدية . ومحبة الشعب . والميل الى الفقير . واعلاء شأن كل ما هو حقير ومتواضع وبسيط وصحيح . وقد تم هذا العمل وسيدوم بعده الى الابد . وكل واحد من البشر مديون له بافضل ما في نفسه من المبادىء الشريفة

اما مسألة انتهاء العالم واقتراب هذه النهاية فمسألة شغلت الانسانية في فلسطين طرباً في ذلك الزمان . فانه اول ما قيل لها انه قد حان اجل كرتك الارضية اقبلت هذا الخبر بابتسام كالابتسام الذي يقتبل به الاولاد الموت وصارت مسرورة بهذه النهاية سروراً مابعده سرور . اما باقي العالم فانه كان يزداد تمسكاً بالحياة كلما ازداد ايغالاً فيها ولذلك كان يوم الخلاص الذي كانت تنتظره نفوس الجليليين الطاهرة بشوق وسرور معتبراً من تلك الاجيال الحديدية التي كانت تخشى كلما طالت عليها الحياة كيوم غضب وحرمان

ولكن مع اعتقاد المسيحيين الاولين بقرب انتهاء العالم يومئذ كان فيهم كثيرون

يحاربون شرور العالم باسم الانجيل و يطلبون اصلاح الحالة استناداً الى مبادئه ، وسيبقى مبدأ «ملكوت الله» اعظم المبادىء المحركة على طلب الاصلاح في كل مكان الى ماشاء الله. اما الاشتراكيون الذين يطلبون اصلاح الارض اليوم فانهم يبقون عاجزين عن انفاذ اصلاحهم ما لم يلجأوا الى افكار يسوع نفسها و يعملوا بها . فانهم يطلبون بناء على مبدأ مادي غليظ امراً مقبولاً وهو جعل جميع الناس سعداء ، ولذلك لا ينجحون . وانما ينجحون متى عملوا بقواعد المسيح وهي ابتناء اعلى صورة للكمال في الارض لا خيرات الارض . وهذا المبدأ يوجب على طالبي اصلاح الارض التخلي عنها وعن خيراتها لا الاستيلاء عليها

ومن جهة اخرى فانه ربما كانت كلمة «ملكوت الله» تعزية واي تعزية للذين يرون فساد العالم الآن ويعتقدون بحدوث تغيير فيه في مستقبل الزمان . فان الذين لا يقدرون على الاعتقاد بوجود عنصرين مستقلين في جسم الانسان لان هذا الاعتقاد مناقض لعلم الفسيولوجيا يطيب لهم ان يؤملوا بحدوث تغيير عظيم في نهاية العالم و ينتظروا في القرون الآتية عالماً صالحاً يكون صلاحه جازاة للبشر على ما احتملوه من الشقاء والفساد في حياتهم الماضية . ومن يعلم اذا كان ذلك لا يتم في بضعة ملايين من القرون فتنتهي حينئذ في الارض كل المبادىء الصالحة و يصير البشر كالملائكة . ان مليون سنة تمرّ كساعة تمرّ . وقد قال القديس بولس «هوذا سرٌّ اقوله لكم . لا نرقد كلنا ولكننا كلنا نتغير في لحظة في طرفة عين عند البوق الاخير فانه سيبوّق فيقام الاموات عديمي فساد ونحن نتغير» (١ كورنثوس الاصحاح ١٥ العدد ٥١ و ٥٢)

فيومئذ يفترق الصالح من الشرير . يومئذ تسود في الارض انسانية فاضلة كريمة يكون فيها المقام الاول للخير والفضيلة لا للقوة والمال ويكون فيها ابن الفقير الفاضل حاكماً ومسيطراً . يومئذ تظهر صورة يسوع اكثر جلاء و يخجل كثير من الذين نظروا تلك الصورة المؤلفة من الفقر والتواضع والفضيلة ولم يؤمنوا بها وكل المتكبرين الذين آمنوا بها ولكن انانيتهم وكبرياءهم وخياناتهم منعتهم من العمل بوصاياها

الفصل السادس عشر

المائدة وكسر الخبز — [illegible]

وكان التلامذة يومئذ لا يكتبون شيئاً من اقوال يسوع لان « ملكوت الله » صار قريباً فلا حاجة الى الكتابة . وكان من اجمل اوقاتهم وقت الجلوس الى مائدة الطعام . فان يسوع كان يحادث كل واحد منهم على المائدة . وكان من عادات اليهود ان ياخذ كبير البيت الخبز و يباركه بصلاة وجيزة ثم يكسره و يقدمه الى كل واحد من الجالسين . وكذلك الخمر . ولا تزال هذه العادة عند الاسرائيليين الى هذه الايام . وقد نالت الايدي يسوع في ذلك بجمعها لمائدة احتفالاً وطقوساً خصوصية . وكان اذا اكل بضعة من الرجال الخبز معاً عدّ ذلك بمثابة رباط يربطهم بعضهم ببعض بسبب هذه الاشتراك (١) . وكان السيد يكسر الخبز على هذا الوجه ويناوله الى تلامذته . وكان يقول لهم انا غذاؤكم الروحي لانه مبدع وتعاليمه . وكان يناولهم الخبز والخمر كان يقول لهم هذا جسدي وهذا دمي

وكانت هذه المعيشة المبنية على انتظار « ملكوت الله » تزيد التلامذة انقطاعاً عن الارض وكرامة العالم . فكان الميل لاقتناء المال في الارض يعتبر فساداً في النفس وكل ما يبعد الانسان عن السماء يجب ان ينبذ نبذاً . وكان بعض التلامذة متزوجين الا ان الاميال الغالب بعد اتباعه السيد لم يكن يخرج على الارجح لان العزوبة كانت مفضلة على الزواج . وكان يجب على الذين يدخلون في سلك التلامذة ان يتركوا كل شيء في العالم حتى النفس والاب والام والاخوة والمال ويتبعوا السيد . هذا فضلاً عن المبادىء السامية الاخرى التي هي عبارة عن اعلى صورة للكمال البشري

ولكن مع هذه المبادىء كانت لا تخلو من خطر على المستقبل . فانها تجعل الانجيل كتاباً بالغاً من الكمال درجة قلما يهتم كثيرون من الناس للوصول اليها . وبناء عليه تبقى تلك المبادىء غير معمول بها حتى من الاكليروس انفسهم . وفضلاً عن ذلك فانه اذا رام احد من الناس الرجوع الى الانجيل و عمل بمبادئه ووجد ...

---

(١) وفي الشرق يقولون اليوم « من اكل خبزاً وملحاً مع انسان وجب عليه ان لا يخونه » وذلك لان هذا الاشتراك يوجب الصداقة والامانة . ومن اقوالهم « بيننا خبز وملح » يدعون به الى مائدة الطعام والصداقة

الا كليروس عمله هذا خطرًا على الناس . واذا قام ملك وكان اكثر الناس تكبرًا وتجبرًا واشدهم حبًا للمصلحة واكثرهم قسوة مثل لويس الرابع عشر مثلاً فانه يجد من الكهنة من يقنعه على رغم الانجيل انه مسيحي لا شك فيه . ولكن كما يقوم الناس كهولاء يقوم ايضاً الناس تعمل بمبادىء الانجيل حرفاً بحرف فيضطرون الى المعيشة خارج الهيئة الاجتماعية في الصوامع والاديرة كما يصنع الرهبان

الفصل السابع عشر

[illegible]

ولما بلغت اعمال السيد الى انتيباس والي الجليل رام مشاهدته فرفض يسوع ذلك لكراهته الدخول في المسائل السياسية وانصرافه الى تعليم الشعب واعماله دون سواه . ولكن انتيباس لم يلبث ان سمع من الناس ان يسوع هو يوحنا المعمدان قد بعث فخاف واضطرب لذلك ورغبة في ان يُخرج يسوع من ولايته ارسل اليه بعض الفريسيين يقولون له ان انتيباس عزم على القاء القبض عليه وقتله كما قتل يوحنا المعمدان . فلم يعبأ يسوع بهم ولا بقولهم . اما انتيباس فانه لما رأى بساطته وكراهته لاثارة خواطر الشعب اطمأن باله وعدل عن اضطهاده

اما الفريسيون فانهم كانوا يقاومون السيد ويعارضونه معارضة شديدة فوجبت مقاومتهم مقاومة شديدة ايضاً . ومن المشهور عن اليهود ان من صفاتهم شدة الوخز في الجدال والمناظرة حتى انه لم يبق يوماً بين الناس مناظرات شديدة كالمناظرات التي كانت تقوم بينهم . وكانت الشدة ضرورية في هذه الحالة لمقاومة القوة بالقوة . ومما لا يحتاج الى بيان ان لوثيروس ورجال الثورة الفرنسوية لو لم يُظهروا شدة وعنفاً في اعمالهم لما كانوا قد عملوا شيئاً

وكان هؤلاء الفريسيون قوماً يراعون الظواهر الدينية دون البواطن . وكانوا اصنافاً . فمنهم فريق يُدعى « نيكفي » وهم الذين يسيرون في الشوارع ويجرّون اقدامهم جرًّا ويصدمون بها الحصى والحجارة . ومنهم فريق يُدعى « كيزاي » اي ذوي الجباه الدامية وهم الذين كانوا يسيرون في الشوارع مغمضي العيون لئلا يقع نظرهم على النساء ولذلك

كانوا يصدمون الجدران في مشيهم فتدمى جباههم . ومنهم فريق يدعى « ميدوكيا » وهم الذين كان كل واحد منهم يعيش مطوياً قسمين . ومنهم فريق يدعى « شيكمي » اي ذوي المناكب القوية وهم الذين يسيرون وظهورهم محنية كأنهم يحملون عليها اثقال الناموس كلها . ومنهم فريق يدعى « اي عمل يجب عمله لا عمله » وهم الذين كانوا يطالبون قواعد الناموس في كل مكان لتعمل بها

ولكن الفريسيين لم يكونوا في الحقيقة يعملون بالقواعد التي تقدمت ولا بقواعد الناموس بل كانوا يظهرون انهم يعملون بها . اما الشعب فكان ينخدع بهم ويصدق اقوالهم . ذلك ان الشعب سهل الانخداع خصوصاً متى كان لرؤسائه مصلحة في خداعه . فانه يرى فيهم اموراً جديرة بالحب يحبها ولكنه لا يرى ما تحت هذه الامور من البواطن الخائنة

فبناء على ذلك كان لا بدَّ من قيام النفور بين نفس يسوع البسيطة ونفوس الفريسيين الجافة اليابسة . فان المسيح كان يدعو الى ديانة مبنية على نقاء الباطن وصفاء القلب . اما الفريسيون فكانت ديانتهم عاداتهم وطقوسهم الاعتيادية . وكان الفريسي في اعتقادهم رجلاً معصوماً عن الخطاء فاذا جادل كان الحق في جانبه دائماً واذا دخل الى الولائم طلب المجلس الاول واذا مشى في الشوارع راقب الناس اذا كانوا يحيّونه او لا واذا تصدق بشيء بوّق بصدقته تبويقاً . ولقد قام كثيرون من كرام اليهود مقاومة هؤلاء الفريسيين منهم يشوع بن سيراخ وغمالائيل ونيكوديموس والرجل الكريم اللطيف الفيلسوف هلل وكلهم علّموا تعليماً سامياً يكاد يكون انجيلياً . ولكن الفريسيين استطاعوا خنق تعاليمهم وحرموا من يقرأها . وكانت قاعدة مبادىء الفيلسوف هلل ان الناموس الحقيقي هو العدالة والحق . وقاعدة مبادىء يشوع بن سيراخ ان الديانة الحقيقية هي صنع الخير في العالم

الا ان مبادىء شمَّاي تغلبت على هذه المبادىء العالية وقوي الفريسيون وانصارهم فكان من نتيجة هذه القوة نشأة كثير من التقاليد والعادات التي غطت الناموس الاصلي فلم يعد ظاهراً معها . ولا يُنكر ان ذلك قد كان مفيداً من جهة حفظ التقاليد اليهودية قروناً عديدة لتكون خميرة للديانة المسيحية ولكن الجامع التي كانت ام تلك التقاليد لم تعد بعد استخدامها الا ام الخطاء والضلال . ولذلك كان قد قُضي عليها بالسقوط ان لم يكن بالاضمحلال . ومع ذلك فقد كان من الغلو ان يُطلب منها حينئذٍ ان تُنكر ذاتها وتتنازل

عن سلطتها من تلقاء نفسها لان ذلك امر لا يصدر عن البشر في هذه الحياة

وبناء على ذلك كانت المقاومة مستمرة بين يسوع وبين الرياء الفريسي الرسمي · ومما كان يُضعف حجج الفريسيين ابتعادهم يومئذ عن التوراة ابتعاد المسيحيين عن الانجيل في هذا الزمان · فنشأ عن ذلك في نفوس الفريسيين بغض شديد لا ينتهي حتى الموت · فانهم تركوا الشعب ان يسمي يوحنا المعمدان نبياً اذ كان امره صغيراً اما يسوع فان روحه كانت تنقض اساس هيئتهم نقضاً ولذلك كان الخلاف بينهم الموت · ومما كان يقدم الوغد سهام التهكم الحادة التي كان يسوع يرشقهم بها · فان هذه السهام كانت تصيب قلوبهم · واذا قيل من ألف هذه الامثال البديعة المملوءة تهكماً وقولاً وتلك العبارات القاصمة بسهام حادة تنفذ في لحم المرائين كأنها صنعت من الرون علقها في ذيول الفريسيين وجعلهم مجروحين بها دائماً مدة ١٨ قرناً الى اليوم · فالجواب ان يسوع هو الذي صنعها وعلقها · فيالك من تهكمات هائلة هدمت عالماً وقتلت امة · ان سقراط وموليير قد رشقا بسهام ولكن سهامهما كانت تخدش الجلد خدشاً · اما هذه السهام فكانت تغوص الى القلوب وتضع النار والياس فيها · فلا ريب ان هذه الضربات ضربات اله

الفصل الثامن عشر

سفر [illegible] الى اورشليم · وادي الجثمانية · جبل الزيتون · بيت عنيا · [illegible]
[illegible]

وقد كان السيد يرى الخطر الذي هو حوله من الفريسيين ولذلك اقام ١٨ شهراً في الجليل دون ان يسافر الى اورشليم · وكان الفريسيون قد حولوا جزءاً الى الامور السياسية في جبل يتخذونها حجة لدى القياصرة والحكام الرومانيين الا ان يسوع تغلب على مكرهم هناك · ولكنه كان يرى انه اذا بقي في الجليل فهو لا يستطيع ان يتم عمله · لان اورشليم مركز كل شيء · فرأى بالرغم عن الخطر وجوب السفر الى اورشليم مع الاعتماد على الامة للتعليم في الهيكل ومناظرة الفريسيين

وقد اختار يسوع في اورشليم ثلاثة مواضع لاستراحته من عناء مناظرة الفريسيين · الاول وادي الجثمانية · الذي ربما كان معناه معصرة الزيت · وكان سكان اورشليم يقصدون هذا المكان للتنزه فيه في كل مساء · والموضع الثاني جبل الزيتون وكان يسوع يصعد اليه مع التلاميذ في الليل ويصرف الليل فيه · اما الثالث فهو قرية في شرقي المدينة وهو المكان

الوحيد الذي يظهر فيه الخصب والنبات في اورشليم . فقد كان فيه وفي ما جاوره من القرى كبيت فاجي والجلالية وبيت عنيا اشجار كثيرة من الزيتون والتين والنخيل . وكان في جبل الزيتون ارزتان كبيرتان كانت تعشش فيهما طيور الحمام وبسط الباعة تحت اغصانهما حوانيتهم للبيع والشراء . وقد حفظ اليهود بعد تشتتهم تذكار هاتين الارزتين

في هذه الاماكن كان يقيم يسوع وتلاميذه . اما الموضع الذي كان يتخذه لراحته فهو قرية بيت عنيا . وهذه القرية قائمة على احدى الآكام المشرفة على الاردن والبحر الميت وهي على مسافة ساعة ونصف من اورشليم . وكان يسوع يفضل الاقامة في هذه القرية الجميلة على ما سواها وفيها مرثا ومريم ولعازر . وكان يسوع اذا اقام في الاماكن التي تقدم وصفها يمضي النهار في عناء المجادلات الشاقة مع الفريسيين المرائين . وكان اذا اشرق الفجر وطلعت الشمس على جبل الزيتون تشرق بنورها الجميل عليه وقف يسوع متأملاً في تلك المناظر البديعة التي حوله ... ويخالطه شيء من التذكار ... فيلتفت حينئذ الى اورشليم ... ويخاطبها قائلاً :

« يا اورشليم يا اورشليم . يا قاتلة الانبياء وراجمة المرسلين اليها . كم مرة اردت ان اجمع اولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدي »

وليس المقصود بذلك ان الشعب اليهودي في اورشليم لم يكن يقبل تعاليم يسوع لانه اشد تعلقاً من رجال الجليل كلا ولكن التعاليم الفريسية الرسمية كانت تضغط على النفوس الى حد انه لم يكن احد من الناس يتجرأ على التصريح بذلك . وفضلاً عن هذا فان اليهود كانوا يخشون اذا تبعوا يسوع ان يقال انهم خضعوا لرجال من الجليل ولا يخفى ان بلاد الجليل كانت بلاداً مكروهة في اورشليم كما تقدم . ومن جهة اخرى فان اتباع يسوع كان يفضي الى الطرد من المجامع والمعابد والحرمان من الحقوق المدنية . وهذا الحرمان يستوجب في الشريعة اليهودية حجز الاملاك وفي ذلك ما فيه من الاهانة والخسارة . وزد على ذلك ان الذي كان يخرج من اليهود لم يكن له ان يصير رومانياً بل يبقى بلا حماية ولا تدبير تحت ضربات سلطة جائرة . وفي ذات يوم جاء بعض حراس الهيكل الى كهنتهم بعد ان سمعوا احدى عظات يسوع واطلعوهم على ما قام في نفوسهم من الشكوك من رضى الشعب عن تلك التعاليم فاجابهم كهنتهم « هل رأيتم احداً من الرؤساء او من الفريسيين آمن به . ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون »

اما يسوع فقد كان يجد في الوعظ وتعليم الشعب في الهيكل . وكانت ملاطفته آخذة

في المعابد والازقة واخذ الشعب يقبل تعاليمه السامية البسيطة دون ان يظهر الشيء بما حوته من دواعيه ؛ ففي ذات يوم جاءه الفريسيون بزانية وسألوه بماذا يجب ان تعامل وقد ظنوا انهم بذلك يظهرون ضعف تعاليمه امام الشعب ، فاجابهم السيد بذلك الجواب الهائل الذي كان كسهم اخترق الرياء وغاص في قلوبهم ، فقد قال لهم " من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر " ومنذ هذه الكلمة اضمروا له الشر ونووا انهم لم يتمكنوا من مقاومته ، ولا غرو فان الحق يكون عظمة الادبية دون كرامة ولا سيما اذا قرنت بفصاحة اللسان والامتنان

وكانت شيعة الفريسيين معروفة بوجهل السيد بصالحها في الامور السياسية لتخفيفها حجة عليه لدى السلطة الرومانيين كما تقدم ، فجاءه بعضهم في ذات يوم مظهرين الحب له وقالوا له " يا معلم نعلم انك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي باحد لانك لا تنظر الى وجوه الناس ، فقل لنا ماذا تظن ، أيجوز ان تعطى جزية لقيصر ام لا " وكانوا يتوقعون عند هذا السؤال ان يجيب السيد بجواب يوجب تسليمه الى الحاكم لقتله كما قتل يهوذا الجليلي الذي كان يحرم دفع الجزية للرومانيين كما تقدم ، اما يسوع فانه اجاب جواباً بديعاً ، فانه قال لهم " اروني نقد الجزية " فقدموا له ديناراً فسألهم لمن هذه الصورة وهذه الكتابة التي على الدينار فاجابوه انها لقيصر ، فقال السيد " اذاً اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله " وبهذه الكلمة وضع يسوع اساس الفصل بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية وفي كلمتها هذه مستقبل الديانة المسيحية

وكانت اقواله الادبية تنحصر كلها في محاربة الرياء والمرائين كما تدل على ذلك الاقوال الآتية التي فاه بها في الهيكل ضد كتبة ذلك الزمان

" على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون فاعملوا حسب اقوالهم ولكن لا تعملوا حسب اعمالهم لانهم يقولون ولا يفعلون ، فانهم يحزمون احمالاً ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على اكتاف الناس وهم لا يريدون ان يحركوها باصبعهم ، وهم يعملون كل اعمالهم لكي تنظرهم الناس فيعرضون عصائبهم ويعظمون اهداب ثيابهم ويحبون المتكأ الاول في الولائم والمجالس الاولى في المجامع والتحيات في الاسواق وان يدعوهم الناس سيدي سيدي ، الويل لهم

" ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم اخذتم مفتاح المعرفة وما تعملون الا لاغلاق ملكوت السموات فلا تدخلون انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون ، ويل لكم يامن تأكلون بيوت الارامل بعلة صلاتكم وبذلك تكون دينونتكم على قدر ذلك ، ويل لكم

يا من تطوفون البحر والبر لتضموا اليكم رجلاً واحداً ومتى حصل عليه تجعلونه ابن جهنم . ويل لكم لانكم مثل القبور المستورة والذين يمشون عليها لا يعلمون

« ويل لكم ايها المراؤون والعميان لانكم تعشرون النعنع والشبث والكمون وتتركون اثقل ما في الناموس اي الحق والرحمة والايمان . فقد كان ينبغي ان تعملوا هذه ولا تتركوا تلك . ويل لكم ايها القادة والعميان الذين يصفون الكأس عن البعوضة حتى كأنهم يبلعون جملاً

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تنقون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوآن سرقة ودعارة . ايها الفريسي الاعمى نق اولاً داخل الصحفة لكي يكون ايضاً خارجها نقياً

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام اموات وكل نجاسة . كذلك انتم من خارج تظهرون للناس ابراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثماً

« ويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراؤون لانكم تبنون قبور الانبياء وتزينون مدافن الصديقين وتقولون لو كنا في ايام آبائنا لما شاركناهم في دم الانبياء . فانتم اذاً تشهدون على انفسكم بانكم ابناء قتلة الانبياء . فاملأوا انتم مكيال آبائكم . فقد جاء في حكمة الله « ها انا مرسل اليكم انبياء وحكماء وكتبة فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون في مجامعكم وتطاردون من مدينة الى مدينة لكي يقع عليكم كل دم زكي سفك على الارض من دم هابيل الصديق الى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح . الحق اقول لكم ان هذا كله يقع على هذا الجيل »

والعلة ما كان يغيظ الفريسيين في هذه التعاليم امران . الاول ان ملكوت الله آخذ في الانتقال من اليهود الى باقي الامم لان اليهود يضطهدون ويقتلون الانبياء والرسل الذين جاؤا ليرشدوهم اليه . والامر الثاني دعوة يسوع الفقراء والخطاة الى احتلال محل الكبراء في ملكوت الله . وقد كان يقول انه جاء الى هذا العالم ليفتح عيون الذين لا يبصرون ويعمي الذين يبصرون (يوحنا الاصحاح ٩ العدد ٣٩) ولكنه في ذات يوم صدرت من فمه هذه العبارة عن الهيكل « اني اهدم هذا الهيكل الذي بنته يد الانسان وفي ثلاثة ايام ابني هيكلاً غير مصنوع بالايدي » فتمسك الفريسيون بهذه الكلمة لانهم اعتبروها تجديفاً على الهيكل واتخذوها حجة للشكوى الى الحكومة . وكانت حكومة الرومانيين توجب

احترام الديانة اليهودية وتنفذ القرارات التي يصدرها رؤساؤها

الفصل التاسع عشر

[illegible]

وقد صرف يسوع فصل الخريف وقسمًا من الشتاء في ذلك العام في اورشليم وكانت البرد شديدًا ايضًا . وكانت اقامته في رواق سليمان في الهيكل . وبعد ذلك خرج من ذلك العام بالسياحة في الاديرة في عبر الاردن حيث كان يوحنا يعمد . فوجد سرورًا وراحة في هذه السياحة ولا سيما في مدينة اريحا . وكانت هذه المدينة قائمة في طرف طريق عمومية كبرى بين كثير من الحدائق والحقول الخصبة وبذلك قام الرومانيون فيها حركة كبيرة . وكان رئيس هذا [illegible] رجلًا غنيًا وهو العشار زكا فاحب مشاهدة السيد . وبما انه كان قصير القامة صعد الى جميزة ليراه منها في مروره . ولما دنى السيد منه رام النزول في بيته دون ان يعبأ بكراهة اليهود للعشارين كما تقدم . اما واحة اريحا فقد كانت جنة من اجمل بقاع سورية يومئذ وقد وصفها يوسيفوس حينما تغزل بها كما احب بلاد الجليل وافضلها على البلاد السماوية .

وبعد ان زار يسوع البلاد التي عمد فيها يوحنا المعمدان والتي كان فيها بدء تعليمه عاد الى بيت عنيا حيث كانت تطيب له الاقامة . وبعد المعجزة العظيمة عاد الى اورشليم

اما الفريسيون فانهم كانوا في اثناء ذلك يتحادثون في شأنه . وقد جمع رؤساء الكهنة في شهر شباط او في اوائل مارس من ذلك العام مجمعًا وطرحوا فيه هذه المسألة للبحث في الامكان بقاء الديانة اليهودية اذا بقي يسوع حيًا . واحيانًا قد يكون في السؤال جواب ولذلك لم يلبث رئيس الكهنة ان قال « لا باس ان يموت واحد فتحيى الامة » .

وكان رئيس الكهنة يومئذ قيافا وقد رفعه الى هذا المنصب الحاكم الروماني فالاريوس كراتوس ولذلك كانت عظمته رومانية . وقد لبث هذا الرجل في رئاسة الكهنة من عام ٢٥ للميلاد الى عام ٣٦ . اما سلطة هذا الرئيس فقد كانت اسمية على الارجح . اذ قد كان فوقه رجل يدعى حنانيا او حنان وهو حموه كان رئيس الكهنة ثم فصل وتزوج قيافا بابنته . ولكنه مع انفصاله عن رئاسة الكهنة بقيت له سلطة كبرى عليها وفي الشعب ينادونه « رئيس الكهنة » وكانوا يستشيرونه في كل المسائل الهامة . وما زاد سلطته ان رئاسة الكهنة لبثت في اسرته مدة ٥٠ سنة وكان قبلها الرئيس الحقيقي مدة [illegible] .

ولذلك كان يرد اسماهما معاً في هذه الحوادث . وكثيراً ما كان يرد اسم الحمو مقدماً على اسم الصهر . وقد ذكر يوسيفوس ان هذه الاسرة كانت مشهورة بالقسوة في الاحكام . ومما يجدر ذكره ان الذي حكم برجم يعقوب اخي يسوع هو من ابنائها . وبناء على ذلك تكون تبعة الحوادث القادمة على حنانيا لا على قيافا . وهو الذي يجب ان يحمل على عاتقه لعنة الانسانية اكثر من بيلاطس وقيافا

وكان جمهور الاكليروس اليهودي راغباً في وضع حد لهياج الشعب وثورة الافكار . ذلك انهم توقعوا من وراء هذا الهياج استفحال سلطة الرومانيين في بلادهم . ومتى استفحلت تلك السلطة هدمت الهيكل وقطعت رقابهم . ولا ريب ان الاسباب التي دعت الى خراب الهيكل بعد مرور ٣٧ سنة على هذا التاريخ لا علاقة لها بالامر الذي تقدم ولكن خوف الفريسيين من انقلاب الاحوال كان عظيماً . ولو قبل اليهود يومئذ تعاليم يسوع لسقط الهيكل وسقطت امته معه . ولذلك قال حنانيا وقيافا "خير ان يموت واحد من ان تموت الامة كلها" . ولكن هذا الحكم فظيع وهائل . ويسوءنا ان نقول ان جميع الاحزاب المحافظة التي تسمي نفسها "حزب النظام والامن العام" تحكم احكاماً كهذا الحكم . فهي تعتبر ان اكبر واجبات الحكومة منع تأثر الشعب وهياجه بكل الطرق ولذلك لا يقوم احد فيها بحركة الا وتقف في وجهه ولو افضى الامر الى سفك دمه . وهي بذلك تظهر حرباً على كل ذي اقدام وكل ذي فكر وتجهل ان هذا الفكر لا بد ان ينتصر . وانا لا نحتاج الى بيان ان الحركة السامية التي كان يديرها يسوع كانت حركة روحية لا علاقة لها بالسلطة الزمنية . ومع ذلك فقد كانت هذه الحركة كافية لاثارة اوهام الرجال الذين يحمون انفسهم بحفظ النظام والهدوء لانها حركة . ولذلك صنعوا ما صنعوه

الفصل العشرون

يسوع في الاسبوع الاخير ـ عودته الى بيت عنيا ـ دخوله اورشليم على اتان ـ خيانة يهوذا ـ عشاء الوداع

وكان هؤلاء الرؤساء قد قضوا على يسوع بالموت منذ شهر فبراير ومارس . ولكن يسوع كان قد سافر مع تلاميذه الى مدينة تدعى افرايم او افرين وهي بلدة على حدود البرية في جهة بيت ايل على مسافة يوم من اورشليم . وقد صرف يسوع في هذه القرية بضعة اسابيع مع تلاميذه لان الزوبعة في اورشليم لم تسكن قليلاً . ولكن الزوبعة لم تسكن لان الرؤساء

اصدروا الامر بالقاء القبض على يسوع حيثما يشاهد في الهيكل . ذلك ان عيد الفصح اليهودي كان قريباً وكانوا يظنون ان يسوع سيصرفه في اورشليم

وفي الواقع ان يسوع رام العودة الى اورشليم قبل عيد الفصح . ولكنه عاد اليها مع تلامذته بنفس مضطربة لما كان يتوقع حدوثه فيها . وكان يحدّث تلامذته في الطريق عن نفسه بحزن ويقول لهم انه قد بلغ النهاية . فساء التلامذة هذا الامر لانهم كانوا يتوقعون تحقق الملكوت الذي كانوا في انتظاره . اما يسوع فانه كان يرى انه مستقبل الموت ولكنه كان يعتقد بان موته يخلص العالم ويحقق ذلك الملكوت

وكانت العادة ان الذين يرومون الحج الى اورشليم يقدمون عليها قبل عيد الفصح ببضعة ايام ليستعدوا للعيد . فلما اقترب الفصح ولم يأت السيد خشي الكهنة من ان يكون قد عدل عن القدوم فيفوتهم القبض عليه . ولكن لم يلبث ان سكن خاطرهم اذ دروا انه قد قرب من اورشليم اذ كان قد وصل الى بيت عنيا في ٢٨ مارس اي قبل عيد الفصح عند اليهود بستة ايام . وكان نزوله في بيت عنيا في بيت مرتا ومريم او بيت سمعان الابرص . وقد احتُفل بعودته احتفالاً عظيماً . وفي هذه الزيارة أُقيمت ليسوع مأدبة في بيت سمعان الابرص ورغبة في زيادة اكرامه دخلت مريم في اثناء المأدبة وفي يدها قارورة طيب ثمين فسكبت الطيب على قدمي يسوع ثم كسرت القارورة جرياً على عادة شرقية قديمة توجب كسر الاناء الذي استعمله ضيف كريم . ثم انها مبالغة في اظهار حبها واحترامها ليسوع اتت امراً لم يسبق له مثيل قبل ذلك وهو انها جثت على الارض امامه ومسحت بشعرها الطيب الذي كان على قدميه . فانتشرت عند ذلك في المكان رائحة الطيب الذكية فانشرحت لها صدور الحاضرين الا صدر يهوذا الاسخريوطي . ذلك ان هذا التلميذ كان اميناً لصندوق الطائفة المسيحية وكان مشهوراً بالبخل والاقتصاد . فلما رأى ذلك الطيب الثمين ضائعاً (بالمئتين) لم يتمالك من تعنيف مريم على هذا الاسراف بقوله انه كان يجب ان يُباع ويُعطى للفقراء اي ان يدخل في صندوق الجمعية . فلما سمع يسوع هذه الملاحظة قال « ان الفقراء معكم في كل حين واما انا فلست معكم في كل حين » ثم وعد تلك المرأة بعلو الاسم الى الابد

وفي اليوم التالي نزل يسوع من بيت عنيا الى اورشليم . ولما صار في منعطف الطريق على قمة جبل الزيتون ورأى اورشليم منبسطة تحت عينيه بكى عليها وخاطبها . ثم وصل الى حي بيت فاجي القائم تحت سفح الجبل قرب اورشليم . وكان هذا الحي من احياء المدينة

المقدمة وفيه يقيم اكثر الكهنة . فاستقبله عند هذا الحي كل الجليليين الذين اتوا يحجون الى اورشليم وجاءوا باتان يتبعها جحش واركبوه عليها . ثم انهم فرشوا الطريق بالابسهم وباغصان الاشجار وحملوا سعوف النخل ودخلوا بيسوع الى المدينة يهتفون « اوصنا لابن داود . مبارك الآتي باسم الله » ولم يكتفِ بعضهم بذلك بل سماه ملك اليهود . فلما سمع الفريسيون ذلك قالوا له « يا ربي اي يا معلم مرهم ان يسكتوا » فاجابهم يسوع اذا سكتوا فان الحجارة تهتف بدلاً منهم

وحين دخول يسوع سأل بعض الجموع من هذا فاجابوهم « انه يسوع نبي الناصرة في الجليل » . وكان عدد سكان اورشليم في ذلك الزمان ٥٠ الف نفس . والعادة ان حادثة كهذه الحادثة لا تترك بعدها اثراً وقتاً طويلاً ولكن اورشليم لم تكن لسكانها في ايام الاعياد بل كانت للغرباء القادمين اليها . ولذلك ازدحم هؤلاء الغرباء وصاروا يريدون مشاهدة يسوع . وبعض من المتكلمين باللغة اليونانية لم يكتفوا بالمشاهدة بل خاطبوا التلامذة وطلبوا مقابلته . ولا يدري احد بما تم بعد هذا الطلب

اما يسوع فانه عاد في ذلك المساء الى قريته العزيزة « بيت عنيا » فبات ليلة فيها وفي الايام الثلاثة التالية اي الاثنين والثلاثاء والاربعاء كان ينزل الى اورشليم في النهار وفي الليل يبيت في بيت عنيا او في احدى المزارع القائمة في غربي جبل الزيتون حيث كان له اعزاء كثيرون

وكان الفريسيون والكهنة قد انزعجوا بعودته الى المدينة . اما يسوع فانه كان مكروباً مضطرباً . وقد اجمعت على ذلك الاناجيل الاربعة . وكان يقول احياناً « نفسي حزينة حتى الموت . خلصني يا ابتاه من هذه الساعة » واحياناً يصعد الى الجبل مع بعض تلامذته ويصلي فيه ووجهه لاصق بالثرى . فكل ما نقوله في هذا الامر هو ان العمل العظيم الذي اقدم يسوع عليه ظهر له حينئذٍ بمظهر جديد لانتباه الطبيعة البشرية . ولا عجب في ذلك فان من اوقف نفسه لفكر عظيم وبذل في سبيل هذا الفكر كل رخيص وغالٍ حتى راحته وقواه وكل ما تملكه يداه لجدير بان يعود الى نفسه عند ظهور خيبة ذلك الفكر له ويتأمل في مصيره . ولكن قوة يسوع الالهية لم تلبث ان تغلبت على الطبيعة البشرية ودفعته الى الامام دون مبالاة بموت . ومنذ هذا الحين دخل يسوع في طور جديد وصارت صورته عبارة عن صورة كاملة فيها تعزية وقوة لجميع النفوس الحزينة المعذبة في هذه الحياة . اما التلامذة فانهم كانوا لا يعلمون شيئاً مما قام في نفس سيدهم

واذا كانت عودة يسوع الى اورشليم قد سوّأت الفريسيين واكابر اليهود فقد ساءهم ذلك الاحتفال العظيم الذي اقيم له حين دخوله الى المدينة . ولذلك انعقد مجلس رؤساء الكهنة في يوم الاربعاء عند يوسف قيافا وتقرر فيه القبض على يسوع في الحال . وبما ان عيد الفصح كان واقعاً في يوم الجمعة والناس يزدحمون فيه ازدحاماً شديداً فقد قرروا القبض عليه قبل العيد لئلا يحدث شغب في الشعب لان يسوع كان محبوباً اليه . فعينوا يوم الخميس لذلك . وفضلاً عن ذلك فانهم قرروا ايضاً القبض عليه وهو في احدى خلواته لا في داخل الهيكل فراراً من الهياج . ولذلك ذهب بعض من الكهنة ليجسّوا تلامذته ويستعلموا منهم ما يريدون عمله . فوجدوا ضالتهم في يهوذا الاسخريوطي . فان هذا التلميذ التعيس خان سيده لاسباب لا تزال مجهولة . وكان هذا الرجل محسوباً تلميذاً حتى ذلك الوقت وله الحق بلقب « رسول » وكان يصنع عجائب ويطرد شياطين . وكان امين صندوق الطائفة المسيحية الاولى فاذا سلّم سيده وسيدها انفرط عقدها وخسر وظيفته ومكتسباته . فما الفائدة التي كانت له من هذا التسليم . المبلغ تافه من المال كثلاثين فضة . ذلك امر غير معقول . والارجح انه كان بينه وبين التلامذة منافسات بسبب حبه الاقتصاد وتوفير المال للطائفة . وربما كان في الملاحظة التي لاحظها السيد في بيت عنيا على يهوذا عن الطيب الذي سُكب على قدميه ما احفظ هذا الرجل وابعد قلبه عن سيده . ولكن هذا الرجل لا يستحق كل اللعنات الهائلة التي صُبت على رأسه من جراء هذا التسليم لان قلبه لم يبتعد عن سيده الا ابتعاداً وقتياً بدليل انه بعد ارتكابه الجرم ذهب وشنق نفسه . فرجل فاسد السيرة والسريرة فساداً حقيقياً لا يندم هذا الندم على جرمه . وانما كان جرمه نتيجة فساد ساعة طرأ على نفسه ثم عاد ضميره اليها

والآن قد وصلنا الى الساعة الهائلة التي كل دقيقة منها تُحسب بمثابة قرن في تاريخ الانسانية . وصلنا الى يوم الخميس ٢ ابريل (نيسان) وهو موعد القبض على يسوع . وكان بدء عيد الفصح واقعاً في اليوم التالي وفيه يأكل اليهود حمل الفصح . ثم يستمر العيد ستة ايام يؤكل فيها الخبز المقدس . فتكون مدة العيد عندهم سبعة ايام واعظمها الاول والاخير اذ يقام فيها احتفالات كبيرة . ولذلك اخذ التلامذة يستعدون لليوم الاول من الفصح

اما يسوع فانه علم بخيانة يهوذا ووعده الفريسيين ان يسلمه اليهم . وفي ذلك المساء جلس يسوع والتلامذة الى الطعام الاعتيادي لان الفصح لا يؤكل الا في اليوم التالي . وكان يسوع في هذه الجلسة هادئاً لطيفاً ولا سيما مع يوحنا وبطرس . انما كان في نفسه شيء

من خيانة يهوذا . وكان يوحنا ممدداً على مقعد ورأسه مستند الى ركبة يسوع . وفي نهاية الطعام اثقلت خيانة يهوذا قلب يسوع فقال « الحق اقول لكم ان احدكم سيخونني » فدهش التلامذة وبهتوا واخذوا ينظرون بعضهم الى بعض . وربما كان قصد يسوع من ذلك ان يرى ماذا يكون لذلك الكلام من التأثير على وجه يهوذا . اما بطرس فان نفسه المتقدة الكريمة اصبحت عند ذلك في عذاب شديد . فاشار الى يوحنا الذي كان قريباً من يسوع ان يسأله عن معنى هذا الكلام . فسأله يوحنا همساً فلم يصرح له السيد باسم احد من التلامذة لان خيانة يهوذا لم تكن قد ثبتت بعد . وانما قال له ان الخائن هو الذي سيقدم له لقمة مغموسة بالمرق . وكانت العادة في الشرق ان رئيس المائدة اذا رام اكرام احد من الجالسين تناول شيئاً من الطعام وجعله لقمة ثم قدمه اليه . ففعل يسوع ذلك وقدم اللقمة الى يهوذا . فلم يدرِ بهذا الامر غير بطرس ويوحنا . وبعد ذلك وبخ السيد يهوذا توبيخاً لم يفهم التلامذة معناه وخرج (١)

وفي هذه الجلسة غسل يسوع ارجل تلامذته وقال « انتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لاني انا كذلك . ولكن ان كنت وانا السيد والمعلم قد غسلت ارجلكم فانتم يجب عليكم ان يغسل بعضكم ارجل بعض لاني اعطيتكم مثالاً » وقال ايضاً « وصية جديدة انا اعطيكم وهي ان تحبوا بعضكم بعضاً كما احببتكم . بهذا يعرف الجميع انكم تلاميذي »

وقد اثر هذا الكلام في نفوس التلامذة تأثيراً شديداً . ولما حدثهم يسوع عن قرب تسليمه الى القضاة والكهنة والفريسيين قال التلامذة انهم سيتبعونه . فقال « انكم ستفترقون » فقال له بطرس اني اتبعك واضع نفسي مكانك فاجابه يسوع انك ستنكرني قبل صياح الديك . فحلف انه يتبعه ولا ينكره وحلف جميع التلامذة معه

---

(١) « فغمس اللقمة واعطاها ليهوذا سمعان الاسخريوطي . ثم قال له يسوع « ما انت تعمله فاعمله باكثر سرعة » فظن السامعون ان يسوع قال له اشتر ما نحتاج اليه للعيد او ان يعطي شيئاً للفقراء » يوحنا ص ١٣ ع ٢٦

الفصل الواحد والعشرون

(القبض على يسوع)

في منزل حنان وقيافا · محاكمة المجمع · يسوع امام بيلاطس · تردد بيلاطس في الحكم · [illegible]

ولما خرج يسوع والتلاميذ من مكان العشاء كان الليل قد اسدل ستاره فعبر يسوع وادي قدرون حسب العادة وذهب مع تلاميذه الى بستان الجثمانية في سفح جبل الزيتون · ولما وصلوا الى البستان جلس يسوع يصلي وقام التلاميذ بجانبه · وبينما هم في هذه الحال واذا بشرذمة من الجند قادمة على نور المشاعل · وكان هذا الجند من الجند اليهودي الذي يحرس الهيكل وسلاحه العصي وقد ترك الرومانيون لليهود استخدامه في اماكن العبادة · وكان معهم ايضاً شرذمة اخرى من الجند الروماني المسلح بالسيوف · وكان في يدهم امر من رئيس الكهنة والمجمع بالقبض على يسوع · وكان يهوذا في مقدمتهم وقد جاء بهم الى المكان الذي يقيم فيه يسوع في الليل · وقد [illegible] جعل تقبيله يسوع علامة بينه وبينهم ليعرفوه · ومما لا ريب فيه انه لما وصل الجنود حدث شيء من المقاومة بينهم وبين التلاميذ · وروى الانجيلي يوحنا ان بطرس استل سيفاً وضرب به احد خدام رئيس الكهنة فقطع اذنه · اما يسوع فانه ابطل هذه المقاومة في الحال وسلم نفسه الى الجند · فعاد الجند به · واما التلاميذ فانهم تفرقوا خوفاً من سلطة اليهود · ولم يتبعه منهم احد سوى بطرس ويوحنا فانهما تبعاه من بعيد · وتبعه شخص آخر قال عنه مرقس هذه العبارة «وتبعه شاب لابساً ازاراً على عريه فامسكه الشبان فترك الازار وهرب منهم عرياناً» · ولعل هذا الشخص هو مرقس نفسه

اما التهمة التي وجهت الى يسوع وصدر الامر بمحاكمته من اجلها فهي تهمة «تضليل الشعب وافساد عقيدته ومخالفة الديانة اليهودية» · وكان الرؤساء اذا ارادوا محاكمة المتهم بتضليل الشعب ومقاومة الشريعة اليهودية صنعوا في التحقيق صنعاً غريباً · فانهم يأتون بشاهدين ويخفونهما في مكان ثم يجيئون بالمتهم ويوقدون امامه شمعتين ليراه الشاهدان من مكمنهما فلا يبقى لديهما شبهة فيه · ثم يسألون المتهم [illegible] فيسمعه الشاهدان المختفيان · فيطلب منه الرؤساء حينئذ تغيير معتقده فاذا اصر عليه اخذه الشاهدان الى

المحكمة وشهدا لديها عليه فحكم برجمه بالحجارة . وقد جاء في التلمود ان رؤساء اليهود فعلوا هذه الفعلة ايضاً بالسيد المسيح وان الحكم الذي حكم عليه لم يصدر الا بناء على شهادة شاهدين خفيين . غير ان الشريعة اليهودية لا تجيز هذا الكمين الشنيع للمتهم الا في تهمة التضليل ومقاومة الشريعة دون سواها

ولما القي القبض على يسوع ذهب به الجند اولاً الى حنانيا الذي كان صاحب الكلمة العليا بين رؤساء اليهود كما تقدم لان قيافا الرئيس الحقيقي كان صهراً له . فسأل حنانيا يسوع عن تعاليمه وتعاليم تلامذته . فقضت حينئذٍ عظمة النفس على يسوع بترك الدفاع عن نفسه . وانما رد حنانيا الى الذين سمعوا وعظه في الاجتماعات العمومية . فلما سمع احد الحاضرين هذا الجواب اعتبره اهانة لحنانيا فلطم يسوع بيده على خده [illegible]

وقد ذكرنا آنفاً ان بطرس و يوحنا كانا يتبعان يسوع من بعيد . اما يوحنا فقد كان معروفاً في بيت حنانيا ولذلك استطاع الدخول اليه . واما بطرس فان حارسة الباب رامت منعه من الدخول . فجاء يوحنا وما زال حتى أذن له بالدخول فأذنت . وكان البرد شديداً في ذلك الليل فذهب بطرس الى نار موقدة واخذ يصطلي على حرارتها في جملة المصطلين . وما اخذ يتكلم عرف السامعون من لهجته انه جليلي اي من بلاد الجليل ومن تلامذة يسوع . فسألوه وانت ايضاً من تلامذته . فانكر بطرس ذلك ثلاث مرات وقال انه لا يعرف يسوع ولا علاقة له به . ومما سهل له هذا الانكار ان يسوع لم يكن يسمعه . ولكن طبيعته الكريمة جعلته بعد حين يحس بالغلطة الكبيرة التي ارتكبها . فان الديك صاح في ذلك الحين . فذكر بطرس صياحه كلام يسوع . فثارت لذلك نفس بطرس واضطربت فخرج من المنزل وبكى بكاء مراً

وبعد دخول السيد منزل حنانيا ارسله حنانيا الى صهره قيافا رئيس الكهنة . وقد تقدم ان قيافا كان آلة صماء في يد حنانيا . وكان المجمع معقوداً في دار قيافا . فلما جيء بيسوع تقدم عدة شهود من شهود الخفية الذين تقدم ذكرهم وشهدوا بان يسوع قال « انه يهدم الهيكل و يبنيه في ثلاثة ايام » وكان التجديف على الهيكل في الشريعة اليهودية بمثابة التجديف على الله . فسأله قيافا رئيس الكهنة هل قال ذلك القول . فلزم يسوع السكوت بعظمة وانفة . ذلك انه كان عالماً ان الرؤساء قد قرروا الحكم عليه كيفما كانت الحال فلا يجدي الدفاع نفعاً . وكثيراً ما يكون السكوت في مثل هذا المقام ابلغ وادل من الكلام

فلما سمع المجمع الشهود حكم باجماع الاصوات بثبوت ما اتهم به يسوع من رغبته في ابطال الدين اليهودي والشريعة اليهودية . ومتى ثبتت هذه التهمة فجزاء صاحبها الاعدام لا محالة . وكان في رؤساء المجمع بضعة يميلون الى يسوع فبعضهم غاب ولم يحضر الجلسة وبعضهم لم يعطِ صوتاً . وقد اصدر ذلك المجمع حكمه بطياشة وخفة لان الدماء كانت رخيصة في ذلك الزمان . ولم يكن المجمع عالماً بانه سيقدم حساباً عن ذلك الحكم الظالم للاجيال المستقبلة

ومتى اصدر المجمع حكماً كان تنفيذه منوطاً بالسلطة الرومانية . ومع ذلك فقد حسب الناس يسوع منذ تلك الساعة محكوماً عليه لاختلاط السلطات في اورشليم في ذلك العهد . وهناك بقي تلك الليلة هدفاً لاعتداء جماعة من الاوباش اللئام الذين كانوا يبصقون في وجهه ويضربونه

وفي الصباح اجتمع رؤساء الكهنة ثانية وتشاوروا في رفع قرار المجمع الى بنطس بيلاطس حاكم اورشليم من قبل الرومانيين لانفاذه في يسوع . وكان شأن اليهود مع الرومانيين في ذلك الزمن شأن عرب الجزائر مع فرنسا اليوم وشأن المدن الهندية المقدسة مع الاحتلال الانكليزي او شأن دمشق الشام اذا احتلت سوريا احدى الدول الاوروبية . ومقتضى ذلك ان الرومانيين كانوا يحترمون ديانة اليهود ويجارونهم في جميع احكامهم الخاصة بشؤونهم الدينية . وقد زعم يوسيفوس انه اذا تخطى احد من الرومانيين في الهيكل المكان المحرم على الوثنيين ان يتخطوه اخذه الرومانيون انفسهم وسلموه الى اليهود لقتله . ولكن هذا القول لا يخلو من المبالغة

فبناء على ما تقدم امر الكهنة بشد وثاق يسوع وساقوه الى دار الحكومة التي هي قصر هيرودس الكبير . وكان اليوم يوم جمعة ٣ ابريل الموافق مساء يأكل اليهود طعام الفصح . فاذا دخل اليهود في هذا اليوم الى دار الحكومة تنجسوا من مخالطة الوثنيين اي الرومانيين وحرم عليهم اكل طعام الفصح في ذلك المساء . ولذلك لم يدخل اليهود حينئذ الى دار الحكومة بل ظلوا خارجاً . فلما سمع بيلاطس الحاكم الروماني بقدومهم صعد الى « البيما » وهي كلمة يونانية دخلت الى السريانية الكلدانية ومعناها « محكمة في العلاء » . وكانت قائمة في المكان المدعو « جباثا » اي البلاط لان الارض كانت مبلطة فيه . ولما اخبر بيلاطس الخبر وعلم بالتهمة والحكم استاء من ادخاله اياه في مسألة كهذه المسألة . ثم دعا يسوع وخلا به في دار الحكومة . وهناك جرى بينهما حديث لم نعرف بعد ذلك حقيقته

ولم يكن بنطس بيلاطس (١) قد اضطهد قبل ذلك احداً من الطائفة المسيحية . ذلك لان هذا الوالي كان مبغضاً لليهود ولم يكن يهتم باضطراباتهم ومنازعاتهم الداخلية . وكان اليهود يبغضونه كما يبغضهم لانهم كانوا يرونه قاسياً شرساً محتقراً لهم ولعادات اليهود شيئاً شنيعاً كما روى فيلون . وكانوا يعتقدون ان ذلك الحاكم الوثني ينوي ابطال الشريعة اليهودية والله يعلم ان ذلك سرّ . اما بيلاطس فانه كان يستاء اشد استياء من التعصب والبغض والاضطراب وغيرها من النقائص التي كان يجدها في اليهود لان نفسه الرومانية التي تربت في الحكومة المدنية كانت مشربة حب العدل كنفوس اصغر الرومانيين واكبرهم . ومنذ قدومه الى اورشليم كان كلما رام ادخال اصلاح في ولايته من انشاء الطرق واقامة المباني كان يلقى الشريعة اليهودية في وجهه تقاومه وتمنعه كسدّ لا يجتازه احد معما كانت تلك الاعمال نافعة وضرورية . ذلك ان هذه الشريعة كانت تضغط على حياة الامة ضغطاً يحول دون اقل تحسين او تغيير . وكان احداث الامور النافعة معتبراً فيها بمثابة ادخال بدع جديدة

وكان لبيلاطس منزل في جوار الهيكل ففي ذات يوم خطر له ان يضع فوق باب منزله شعاراً يدل على ان المنزل منزل والي المدينة . فلما وضع هذا الشعار (وكان شبيهاً بالالواح المكتوبة التي توضع اليوم على منازل القناصل والادارات الكبرى) هاج اليهود وماجوا كما روى فيلون . فاصرّ بيلاطس على وضع الشعار فعدّ اليهود عمله لاجبارهم . ثم تنازل عن ذلك فلم تحدث فيها الدماء . فهذه الحادثة وامثالها جعلت بيلاطس كثير التأني في معاملة ذلك الشعب الغريب . وكان يسوءه ان يكون آلة لاتلاف تلك النفوس الثمينة من اجل شريعة يكرهها كما روى يوسيفوس . ذلك انه ان التعصب الديني اذا حمل الحكومات المدنية على اعمال جائرة فانه يعود فيلقي تبعة تلك الاعمال عليها وحدها وهو ظالم واضع لان الجاني الحقيقي انما هو الذي اغرى بها وحرض عليها

وبناء على ذلك فان بيلاطس رغب في انقاذ يسوع . ولا ريب ان هدوء يسوع وثبات جأشه ولطف منظره قد اثرت في نفس الحاكم الروماني . وفضلاً عن ذلك فان زوجة بيلاطس كانت على ما يظهر قد رأت في ذات يوم من شباك قصرها المشرف على

---

(١) بيلاطس كلمة لاتينية مأخوذة من "بيلوم" ومعناها "قوس النشاب" وهي سلاح رامٍ عند الرومانيين . وقد سمي بنطس (بيلاطس) نسبة الى هذه القوس التي اهداها من الرومانيين هو او احد اجداده

ساحة الهيكل وبخت منه يسوع مرارًا عدواه وقطنه وطهارته . ولما سمعت بان اليهود سيقتلونه ثقل على نفسها هذا الامر الفظيع فجاءها في الحال ان تكلم زوجها في شأنه . ومهما يكن من هذا الامر فان الشيء الذي لا ريب فيه هو ان بيلاطس كان ذا ميل الى يسوع حين دخوله عليه

وكان كهنة اليهود قد حكموا على يسوع بالاعدام لانه قاوم تقاليدهم فلما دفعوه الى السلطة الرومانية لم يكتفوا بذكر مقاومته لدين اليهودي بل زادوا على ذلك انه سمى نفسه ملك اليهود وحرم دفع الجزية الى قيصر . ومعلوم ان يسوع لم يلقب بذلك قط وانه كان يعترف بالسلطة الرومانية كل الفخر ويوجب دفع الجزية اليها . ولكن الاحزاب الاكليركية التي تروم حفظ كيانها لا تحجم عن الكذب والافتراء والنميمة لانفاذ اغراضها . وقد روى الانجيلي يوحنا ان بيلاطس سأل يسوع : أصحيح ما يقوله الكهنة . اما يسوع فانه وجد جوابًا جامعًا . فانه اجاب انه ملك ولكن مملكته ليست من هذا العالم بل مملكته مملكة الحصول على الحق والاقتداء به . اما بيلاطس فانه لم يفهم شيئًا كثيرًا من هذا الكلام لان الرومانيين في ذلك العصر كانوا لا يهتمون بالمسائل الفلسفية والدينية وكانوا يرون الانتصار للحقيقة وكرسي الناس لها امرًا غريبًا لا فائدة له . فكان البحث في مثل هذه الامور يثير الضجر والملل في نفوسهم . وكانوا بالاكثر لا يرون ما هو مخبوء في الحرية المسيحية من الخطر على الامبراطورية الرومانية ولذلك فرغ بيلاطس سريعًا في انقاذ يسوع . وقد بقي الرومانيون حتى خراب اورشليم يعاملون اليهود هذه المعاملة اي عدم المداخلة في مشاكلهم الداخلية

فخطر لبيلاطس خاطر ظن انه حلاً لهذه المشكلة . فقد جرت عادة الرومانيين في اورشليم ان يطلقوا للشعب في كل فصح سجينًا اكرامًا للعيد . وبما ان بيلاطس كان عالمًا بان يسوع لم يقبض عليه الا لحسد الكهنة له حسب انه يرضي الشعب باطلاقه هو في ذلك العيد . فخرج بيلاطس من دار الحكومة الى البلاط اي المحكمة في الخلاء واقترح على الشعب ان يطلق لهم في ذلك العيد " ملك اليهود " . وقد دعاه بيلاطس ملك اليهود ليظهر للشعب انه غير مهتم له . اما الكهنة فلما سمعوا ذلك خافوا عاقبة هذا الافراج فاندفعوا يغرون الشعب ويحرضونه على طلب براباس بدلاً من " ملك اليهود " . وكان براباس رجلاً مشهورًا عند الشعب وقد قبض عليه الرومانيون وسجنوه لاشتراكه في فتنة حدثت في المدينة اقترنت بسفك دماء . فلما سمع الشعب اقتراح بيلاطس وكان قد اثر فيه اغراء الكهنة صاح " لا نريد هذا ولكن

تريد برابا » فاخطر بيلاطس في ذلك اليوم ان يطلق برابا

ولكن المشكلة ازدادت بذلك تعقداً في عينيه · وخشي اذا بالغ في الرفق بيسوع ان يُتهم بمحاباة رجل يزعم نفسه ملك اليهود وهذا مما يبقي عليه في رومه شبهة سياسية عقيمة · ولا عجب ان يجول هذا الامر في فكر بيلاطس فان كل سلطة في العالم مضطرة الى مسالمة الشعب والمتعصبين · ولذلك ظن هذا الوالي انه يلزمه ان يصنع شيئاً · وبما انه كان يكره ملك السماء ارضاء لاناس يكرهونه فقد خطر له ان يجعل لبساً لذلك شكلاً مضحكاً لعل ذلك يطفئ حقد الحاقدين وغضبهم · فجُلد يسوع بامر بجلده · وكان الجلد في العادة مقدمة للصلب · وربما كان قد خطر لبيلاطس ان يوء الكهنة بالعزم على صلب يسوع الرقة فلم يكتفي بالجلد دون الصلب حين رضائهم

وحينئذ حادث حدث فظيع تقشعر له الابدان وتدمى القلوب · فان بعضاً من الجنود جاءوا بثوب قرمزي فجعلوه على هامة يسوع ثم وضعوا على رأسه اكليلاً من شوك وجعلوا في يده قصبة واخذوه بعد ذلك الى منبر عالٍ منصوب امام الشعب · ثم صار الجنود يمرون امامه يجثون لدى المنبر على سبيل التهكم ويلطمون يسوع على خديه ويبصقون في وجهه ويضربونه بالقصبة وهم يقولون متهكمين : السلام يا ملك اليهود · وانه من الصعب ان يصدق الانسان ان الجنود الرومانية المشهورة بالرزانة وسكون الخاطر تأتي عملاً سافلاً فظيعاً كهذا · ولكن قد ثبت ان الجنود التي كانت لدى بيلاطس لم تكن الا من الجنود الاضافية المساعدة التي يستعملها الرومانيون لحاجاتهم · ولو كانت تلك الجنود من الجنود الرومانيين الحقيقيين لما نزلوا الى هذه الدرجة من الدناءة والسفالة

ولقد ذكرنا ان بيلاطس امر بان يُفعل هذا الفعل في يسوع املاً ان يخمد حقد اليهود ورغبة في حل تلك المشكلة حلاً هزلياً بدلاً من حلها حلاً دموياً · ولكنه يظهر ان هذا لم يرضهم قطعياً · فان ولاة الفتنة ازدادوا ثوراناً وغيظاً وصاروا يصرخون « اصلبه اصلبه » · وازداد الكهنة ايضاً شدة في طلب ذبح الحمل البريء · فوجد بيلاطس انه لا يستطيع انقاذ يسوع الا اذا جرد جنده وقام بهم على تلك الغوغاء · ومع ذلك فانه حاول تأجيل الامر لعل في الاطالة فائدة · فدخل ثانية الى دار الولاية وسأل عن يسوع من اي بلد هو فعلم ذلك وارسله الى والي بلده · وقد روي انه لما علم انه من الجليل ارسله الى هيرودس والي تلك البلاد وكان يومئذ في اورشليم وقد جاء للحج · اما يسوع فانه لم يساعد بيلاطس في سعيه في انقاذه بل كان ملازماً الرصانة والسكوت التام لدهش

بيلاطس . وفي اثناء ذلك اشتد صخب الشعب في الخارج وكثر صراخ الصارخين ضد اعمال بيلاطس . واخذ دعاة الفتنة يتهمون هذا الوالي الروماني بمحاباة عدو قيصر . وبذلك جعل اولئك اليهود انفسهم من اكثر الناس دعوة الى طاعة القيصر طيباريوس مع انهم كانوا من الد اعداء حكمه . وكانوا يقولون « ليس لنا ملك الا قيصر وكل من يزعم انه ملك فهو ضد قيصر . فاذا كان الوالي يطلق هذا الرجل فهو لا يحب قيصر » فلم يستطع حينئذ بيلاطس الضعيف الرأي ان يثبت على رأيه بعد هذا الكلام . لانه علم عند تلك الساعة ان اعداءه يغتنمون هذه الفرصة ويرسلون الى رومه تقارير سياسية ضده ويتهمونه بانه يدافع عن اعداء الامبراطور . وقد اختبر بيلاطس اليهود في مسألة الشعار التي تقدم ذكرها فوجد انهم خاطبوا رومه في شأنها وتغلبوا عليه فيها . وكان هذا الوالي حريصًا على منصبه فلم يرَ بدًّا من الاذعان لليهود . ولكنه يقال انه القى عليهم تبعة ذلك الحادث حين تسليمه فاجابوه « ليقع دمه علينا وعلى اولادنا »

ومما لا ريب فيه ان ذلك الوالي الروماني لم يكن قادرًا على ان يصنع شيئًا غير صنعه لان الرومانيين كانوا قد اتخذوا مسالمة اليهود خطة من اتقاء الفتن والثورات . وما دروا ان هذه المسالمة ستكون باعثًا على تجريئهم عليهم وقيامهم الى الفتن والثورات . ولا عجب ان السلطات الدينية متى كانت لها سيادة او قوة على الحكومات المدنية فانها تدفعها الى سفك الدماء . وليس من الصعب ان نقول ان ملك اسبانيا الذي كان يسلّم الى الدومنكيين رعيته بناء على الرأي الاكليروسي هو افظع ذنبًا من بيلاطس . ذلك ان سلطة هذا الوالي كانت في اورشليم ناقصة فكان عاجزًا عن انفاذها . واما ملك اسبانيا فان البلاد بلاده وكانت سلطته كاملة فيها . ولكن قد جرى على الحكومات حين يجعلها تضطهد الناس من اجل الاكليروس . واذا كان في هذه الحكومات واحدة غريبة عن هذه الاوضاع فانما هي بيلاطس بعينه . وليس الخائف في حال كهذه الحال اليد التي تضرب بحكم الارادة الاكليريكية التي تختفي وراءها . وليس لاحد ان يدعي انه يكره سفك الدماء اذا كان يحرض على اهراقها

فليس الذي قضى بقتل يسوع اذًا هو طيباريوس او بيلاطس وانما هو الحزب اليهودي القديم اي الشريعة اليهودية نفسها . غير ان الافكار العصرية توجب عدم انتقال الذنوب من الآباء الى الابناء لان كل انسان لا يُسأل لدى عدالة الله والناس الا عن الاعمال التي يكون قد عملها بنفسه . فبناء عليه لا يجب ان يحمل اليوم كل الاسرائيليين تبعة ذلك العمل الفظيع . وهب ان اليهود يجب ان يحملوا اليوم هذه التبعة فما ادرانا ان الذي لكم

اليهود . فلو عاش في ذلك الزمان لما دخل بين الذين كانوا يصيحون حول دار الحكومة « اصلبه اصلبه » . ان ما ادراك انه لا يكون سمعان القيرواني الذي حمل عن يسوع صليبه ؛ ولكن مع اعتبارنا هذا الامر لا يسعنا الا ان نقول ان مسئولية الشعب تختلف عن مسئولية الافراد . واذا كان في العالم جناية (حتى احسن جناية امة) فهي هذه الجناية . لان يسوع لم يصلب الا بقضاء من الشريعة اليهودية نفسها . وقد قال الكهنة ذلك لوالي الرومان قولاً صريحاً . فانهم قالوا (لنا شريعة وبحسب الشريعة توجب موته لانه جعل نفسه ابن الله) « يوحنا الاصحاح ١٩ العدد ٧ » ذلك ان هذه الشريعة كانت توجب قتل كل من يحاول تغيير الدين او مقاومته . وهي شريعة كريهة واثر من آثار الوحشية الماضية . ولقد قضت على يسوع الذي جاء لاكمالها ان يموت بها

ولكن والصلاة كم من قرن ينبغي ان يمر قبل ان تجف تلك الدماء الزكية الطاهرة التي سفكت من اجلها . ينبغي ان تمر الف قرن للوصول الى شيء من النتيجة . وفي اثناء هذه القرون الطوال كم قد قبض على الفلاسفة والعلماء باسم يسوع وعذبوا ايضاً . حتى في هذا العصر لا يزال في بعض البلاد التي تسمي نفسها بلاداً متمدنة عقوبات للذين يخالفون التقاليد الدينية ويرتئون آراء مخالفة لآراء غيرهم . فكيف يقولون ان يسوع ما جاء الى الارض ليعلم الناس ان يعبدوا « مولخ » (١) اله رائحة الدماء ونحر البشري ولكن ليعلمهم المحبة والعدل والاخاء والسلام والتسامح والاعتدال . ولقد وقعت الديانة المسيحية في التعصب في بعض الازمان ولكن وقوعها فيه كان امراً طارئاً لم يزل لان التعصب والديانة المسيحية الحقيقية ضدان لا يجتمعان وانما التعصب ثمرة يهودية بدليل ان الشريعة اليهودية كانت اول شريعة في العالم وضعت اساس الصحة والحقيقة المطلقة وقضت بلا بحث ولا محاكمة برجم كل من يخالفها ولو ايد قوله بصنع العجائب . ولا ريب ان الشعوب الوثنية كانت على شيء كثير من التعصب ولكن تعصبها لم يبلغ حد تعصب اليهود بدليل انها لو كانت متعصبة الى ذلك الحد لما كانت اعتنقت الديانة المسيحية . فالديانة اليهودية كانت عبارة عن قواعد راسخة كالجبال لا يجب ان يزعزعها شيء او يعترض عليها بشيء وفوقها سيف يحميها . فلو ان الديانة المسيحية بدلاً من مطاردة اليهود وجعلها اياهم بعضاً اتبعت تلك القواعد والمبادئ التي قضى بها صاحب شريعتها لكان عملها هذا اكثر انطباقاً على اصل نشأتها وكانت اعظم فضلاً على الانسانية

(١) اله الكنعانيين والفينيقيين وهو الاله بعل نفسه وكانوا يقدمون له الضحايا البشرية

الفصل الثاني والعشرون

(صلب يسوع)

الجنود الرومانيون والصلب · سمعان القيرواني و[illegible] ·
طريقة الصلب القديمة · [illegible] · [illegible]
[illegible] · [illegible]

وقد تقدم ان كهنة اليهود لم يسلموا يسوع الى بيلاطس الا بتهمة سياسية مقتضاها انه يقاوم قيصر والامبراطورية الرومانية · ولو كانوا اتوا اليه بحجة دينية لما كان ذلك الوالي الذي كان لا يؤمن بشيء يجاريهم على هواهم · ولذلك جعل الكهنة يحرضون الشعب على طلب صلب يسوع لان الصلب جزاء الجرائم السياسية · اما الجرائم الدينية فقد كان جزاؤها عند اليهود الرجم بالحجارة ثم الشنق بعد الرجم في اكثر الاحيان · ولعل ذلك سبب ما جاء في التلمود من ان اليهود رجموا يسوع اولاً ثم شنقوه · وهو خطأ لان يسوع لم يرجم ولكن صلب صلباً

وقد روى تاسيت ان الجنود الرومانية كانت تقوم في ذلك الزمن مقام الجلادين في اعدام المتهمين السياسيين · فدفع يسوع اذاً الى شرذمة من الجند يتقدمها قائد مائة · وحينئذ بدأوا بالعمل الهائل الفظيع الذي عزموا عليه · ارتجي ايتها الارض وارتعدي ايتها السماء فان الصالح الذي لا عيب فيه قد دفع ليصلب كأحد المجرمين

وكان الوقت منتصف النهار · وكان في السجن لصان حكم عليهما بالصلب · فألبس يسوع ثيابه التي كانت قد نزعت عنه من قبل حين عرضه على المنبر امام الشعب · ثم سيق الى مكان الاعدام مع اللصين اللذين تقدم ذكرهما

وهكذا يعلق الابن الصالح الذي ارسلته العناية الالهية لخلاص البشر وينقذ الارض من الشقاوة وظلامة الوثنية في وسط اللصوص الذين يعيثون في الارض ويفسدون

وكان مكان الاعدام يدعى « الجلجثة » وهو كائن في الجانب الشمالي او الشمالي الغربي خارج المدينة قريباً من سورها · ومعنى « الجلجثة » « الجمجمة » وربما سمي ذلك المكان كذلك لكونه اكمة شبيهة بجمجمة الانسان

وكان يجب على المحكوم عليه بالصلب ان يحمل بنفسه صليبه · ولكن جسد يسوع كان ضعيفاً لا يقدر على نقل الصليب · وكان محرماً على الجنود الرومانية ان تحمل

صليب المحكوم عليه لان ذلك يحط من شأنها · فاتفق انه مرّ حينئذ رجل يُدعى سمعان القيرواني فجعله الجنود يحمل صليب يسوع · ولم يكن بجانب يسوع في هذه الساعة احد من التلامذة

ولما وصلوا الى مكان الاعدام قدموا اولاً الى الثلاثة خمراً شديدة المفعول · ذلك انهم كانوا يقدمون هذه الخمر الى جميع المحكوم عليهم قبل انفاذ الحكم وذلك كما روى التلمود لتخدير حواسهم على سبيل الرفق بهم لئلا يشعروا بعذاب شديد · وقد روى التلمود ايضاً ان سيدات اورشليم كنّ يبعثن هذه الخمر من مالهن ويقدمنها لهذا الغرض · واذا رام الرومانيون صلب احد ولم تقدم له واحدة من النساء خمراً فان الخمر تُدفع حينئذ من مال الحكومة · فلما قدم الجنود الخمر الى يسوع ذاقها ثم اعاد الكاس دون ان يشربها · ولا عجب فان هذا المخدر قد جعل للنفوس الصغيرة التي لا تقوى على احتمال العذاب · اما النفوس الكبيرة فانها تود استقبال الموت وهي متملكة جميع حواسها وفؤادها

ثم ان الجنود دنت من يسوع ونزعت عنه ملابسه · وكان الصليب مؤلفاً من جذعين على شكل الحرف "T" ولم يكن مرتفعاً كثيراً لان قدمي المصلوب كانتا قرب الارض · فاخذه الجنود ونصبوه في الارض · وكانت العادة ان تُسمَّر يدا المصلوب في الصليب بمسامير واما قدماه فاحياناً تسمّرونها بمسامير واحياناً يربطونها بحبل · وكانوا يأخذون ايضاً قطعة من خشب ويسمّرونها في وسط الصليب بين ساقي المصلوب تحول دون تمزّق يديه وسقوط جسمه عن الصليب · واحياناً يضعون تحت قدميه لوحاً افقياً يسند رجليه ويمنع سقوطه

ولما فرغ الجنود من اعداد الصليب ادنوا يسوع منه وصلبوه عليه كما تقدم · فذاق يسوع كل هذه الآلام الهائلة · وكان صليبه بين صليبي اللصّين · وبعد الصلب جلس الحرّاس بجانب الصلبان ينظرون الى المصلوبين بعد ان اقتسموا ثيابهم · ففتح يسوع حينئذٍ فاه الكريم وهو على الصليب بعد سكوته الطويل وقال "يا ابتاه اغفر لهم لانهم لا يعلمون ماذا يصنعون"

وكانت جرت العادة عند الرومانيين ان يعلقوا كتابة على كل صليب · فعلقوا هذه المرة على صليب يسوع كتابة باللغة العبرانية واليونانية واللاتينية هذه ترجمتها "ملك اليهود" وربما حمل الجنود هذه الكتابة امام يسوع في طريقهم الى الجلجثة · اما اليهود فلما رأوا بهذه الكتابة رأوا فيها اهانة لهم لانهم كانوا يؤملون عودة الملك اليهم فجاء كهنتهم الى

بيلاطس وقالوا له " لا تكتب ملك اليهود ولكن هو قال انه ملك اليهود " (يوحنا اصحاح ١٩ عدد ٢١) ولكن بيلاطس انف غيظا منهم ومن كثرة طلباتهم فلم يسمع لهم

اما التلامذة فانهم تركوا يسوع وجنحوا الى الفرار كما ذكر جوستينوس . ولكن يوحنا يقول انه بقي هو نفسه متقيا بجانب الصليب . ومما لا ريب فيه ان النساء الجليليات اللواتي تبعن يسوع الى اورشليم قد تبعنه الى الجلجثة ايضا ولم يتركنه (١) وهؤلاء النسوة هن العذراء امه ومريم اختها ومريم المجدلية وصالومه وغيرهن . ويقول الانجيلي يوحنا انهن كن وقفات بجانب الصليب . واما الانجيليون الآخرون فيقولون انهن كن ينظرن اليه من بعيد

ولكن ما عدا هؤلاء النسوة الكريمات لم يكن امام يسوع وهو على الصليب سوى مناظر الدناءة والضعة البشرية . فانه كان يسمع حوله التهكم والشماتة من كل صوب ، فمن قائل " يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة ايام خلص نفسك " ومن قائل " خلص آخرين واما نفسه فلا يقدر ان يخلصها . ان كنت ملك اسرائيل فانزل عن الصليب لنؤمن بك " وغيره كان يقول " قد قال انه ابن الله واتكل على الله فلينقذه الآن " (متى ص ٢٧ ع ٤٠ ومرقس ص ١٥ ع ٢٩)

وكانت السماء حينئذ سوداء من الغيوم المتلبدة في وجهه والارض في تحت الجبال لوحة خدرية . فكأن الحجاب الممتد عن وجه ابن السماء اثار في الطبيعة البشرية شكا وارتيابا . فحسب انه يتعذب ويسفك دمه الذكي من اجل جنس دني لا يقدر ذلك الدم فيه . فالتفت حينئذ الى ابيه وقال " الهي الهي لماذا تركتني " ولكن هذا اليأس الوقتي لم يلبث ان انقشع عن نفسه وعادت اليه عواطف الواجب الذي جاء من اجله ، فرأى من الغاية التي كان عليها ان موته سيخلص العالم ويحييه وينشر الكرازة والبشارة باسمه في جميع اقطار الارض . ومنذ تلك الساعة بدأت حياته الالهية مع ابيه تلك الحياة التي مرت عليها القرون الطوال وهي في نعيم قلب الانسانية

---

(١) وفي ذلك قال فرنسيس ميشار قولا اراد به اظهار اخلاص النساء ورقة عواطفهن وشدة تأثيرهن في المجتمع البشري وهو " ان يسوع اسلم الى الموت من احد تلامذته وانكر من تلميذ آخر وترك وحيدا من الجميع الا النساء فانه وجدهن يبكين على طريقه وهو صاعد الى الجلجثة " .

النسوة والتلامذة ينزلون يسوع عن الصليب

وكان من اشد عذابات الصالب ان المصلوب يعيش على الصليب ثلاثة او اربعة ايام وهو في تلك الحالة . ذلك ان الصلب غير مميت بحد ذاته لان الجروح التي تحدث في القدمين واليدين بسبب المسامير سريعة الالتئام . واما الصلب فيحدث في المصلوب خللاً شديداً في الدورة الدموية لقيام الجسم قياماً غير طبيعي وقتاً طويلاً ينشأ عن ذلك صداع شديد لا يحتمل ويعقبه الموت . وكان غرض الرومانيين من صلب المجرمين تعذيبهم وتركهم [illegible] على الخشبة عبرة للناس لا قتلهم . ولذلك كان كثيرون من المصلوبين الاشداء الاقوياء يقضون ويبيتون على الصليب عدة ايام ولا يموتون الا من الجوع

ومن نواميس الصلب انه يجوز [illegible] النفس [illegible] [illegible] وطلب ماء . وكان هنالك [illegible] من شراب الجند [illegible] [illegible] [illegible] هذا الشراب [illegible] . ولكن يجب على الجنود الرومانية ان تحول هذا الشراب في كل [illegible] والحالات [illegible] [illegible] الاعدام . [illegible] هؤلاء الجنود [illegible] [illegible] على طرفها الحربة ثم [illegible] في [illegible] [illegible] [illegible] السيد . [illegible] بعد ذلك [illegible] راسه الكريم على صدره وقال [illegible] في يديك استودع روحي [illegible] الروح

فالآن [illegible] كل [illegible] العمل العظيم الذي [illegible] الانسانية . وقد وضعت [illegible] الابدية [illegible] لا يجاوز [illegible] [illegible] العظيم [illegible] الآن من [illegible] [illegible] الى هذه [illegible] التي [illegible] [illegible] على [illegible] عن الحق [illegible] في سبيله وعبادة الله عبادة روحية وصنع الخير والمحبة والفضيلة والايمان [illegible] الفقر والرحمة . [illegible] القرون والاجيال والعالم [illegible] [illegible] [illegible] يكون [illegible] الكبرى التي تدور حولها رحى اعظم حرب قامت بها الانسانية . وسيكون هذا الاسم الكريم [illegible] بعد هذه الحادثة الف مرة اكثر مما كان يوم مرور صاحبه في هذه الدنيا . بل انه يكون حجر الزاوية في بناء الانسانية حتى ان من يحول [illegible] منه [illegible] الانسانية من اساسها

الفصل الثالث والعشرون

(نتيجة عمل يسوع) (١)

ينتج مما تقدم ان يسوع لم يخرج عن دائرة اليهودية في حياته بعد ان كانت جماهير الاثيمين ويقبلهم في ملكوت الله الا ان حياته كما عرفت في البلاد التي ولد فيها . ولا بلاد اليونان والرومان لم تسمع به . ولم يرد ذكر اسمه في كتب الوثنيين الا بعد مرور مائة سنة عند كلامهم على تاريخ الفتن التي كانت تحدث لعالم الامبراطورية حتى في اليهودية نفسها لم يحدث يسوع تأثيراً عظيماً . فان الفيلسوف فيلون الذي توفي حول سنة ٥٠ للميلاد لم يعلم به . والمؤرخ يوسيفوس الذي ولد في سنة ٣٧ والف مؤلفاته في اواخر القرن لم يذكر صلبه الا في سطر واحد كأمر ثانوي . ولما احصى الفرق والمذاهب في عصره لم يحص فيها « المسيحيين » . ومن جهة اخرى فان كتاب « المشناة » لم يرد فيه ذكر للمذهب الجديد . وما ورد في « الجمارا » عن يسوع يرجع الى ما بعد القرن الرابع والخامس

على ان العمل العظيم الذي عمله يسوع جعل تلاميذه يحبونه « في حياته وبعد موته » كما قال يوسيفوس . ومن هنا ما جعل اهل ذلك العصر يحجبون عنه ما عمله فلم يكن مبنياً على قواعد مخصوصة وعقائد مقررة ولذلك لم يخطر له في بال ان يكتبها او يسكنها . وكل من رام ان يكون تلميذاً له لم يكن يطلب منه ان يعتقد بهذا الامر او بذاك بل كان يكفي ان يحبه ويتبعه وهذا الشيء بقي من الرجل فيسوع الحكيم والعطف الذي احدث عنه . ومثاله الادبي والتأثير الذي احدثه في نفوس تلاميذه . فلم يكن يسوع اذاً مؤسس عقائد بل كان واضع نزعة يدعو العالم الى روح جديد . ولكن المسيحية ثم من جهة اخرى الكنيسة اليونانية التي ارتقت عنها الكنيسة منذ القرن الرابع في تلك المناقشات الدينية العقيمة ومن جهة اخرى علماء السكولاستيك اللاتينيين الذين راموا ان يستخرجوا من الانجيل كثيراً من المواد التي سطروها في الخلاصة اللاهوتية . وكل هذا ليس بالمسيحية او المسيحية كانت في عصر يسوع انتظاراً مجرداً لانتظار ملكوت الله

وبناء على هذا يمكن الآن ان نفهم السبب الحقيقي من اجله تقدمت المسيحية بعد مرور

(١) هذا الفصل منقول حرفياً لا تلخيصاً وهو الفصل الاخير من اصل الكتاب

بل فرضًا عليها ان تكون ديانة عمومية ابدية . ذلك لان ديانة يسوع هي من عدة وجوه الديانة النهائية . فان يسوع نادى بحق كل انسان ان يشترك في ملكوت الله (١) ومن ثمّ صارت الامة البشرية خارجة عن سلطة الشريعة الموسوية وانشأت لنفسها سلطة جديدة وهي السلطة الروحية . غير ان هذه السلطة قد كانت اصلها غير مرتفعة [illegible] القديم الى عدة قرون [illegible] . وقد صدر عن هذه الحكمة الروحية في عدة احوال ظلم فظيع واتخذت مطالب [illegible] لانفسها . الا ان المسيح في جوهر تعاليمه لا انفصال بينه وبين السلطة المدنية [illegible] حيث [illegible] الحرية . فان الديانة المسيحية التي [illegible] من [illegible] بين الشعب [illegible] الشعب واحيا [illegible] بها الشعب فقد كانت [illegible] خصوصية لا [illegible] بل كانت عبارة عن اول [illegible] العواطف الشعبية [illegible] من السيادة [illegible] الشعب [illegible] الانسانية [illegible] القديمة [illegible]

وان كانت الديانة المسيحية [illegible] عبارة عن حركة [illegible] كل عقيدة [illegible] ثلاثة قرون [illegible] لا تزال حتى اليوم [illegible] الاصل [illegible] في [illegible] الانجيل . وان ملكوت الله [illegible] عبارة عن [illegible] من [illegible] اليوم الا [illegible] الى [illegible] [illegible] قواعد الحرية [illegible] عن [illegible] الانسانية [illegible] النفس [illegible] في الارض [illegible] كل [illegible] التي [illegible] كل [illegible] [illegible] لا يمكن [illegible] الا [illegible] يسوع كان [illegible] هذه [illegible] [illegible] ولا يزال [illegible] الى اليوم . [illegible] من [illegible] الروح [illegible] من قال [illegible] هذا [illegible] [illegible] كان من [illegible] ولا [illegible] بعده [illegible]

وهكذا [illegible] المسيحية [illegible] كل ما [illegible]

(١) [illegible]

خارج هذا التقليد الشعبي العظيم شيئاً عقلياً . فكان يسوع مؤسساً للديانة الانسانية كما كان سقراط مؤسساً للفلسفة وارسطو مؤسساً للعلم الطبيعي . نعم قد وجدت الفلسفة قبل سقراط والعلم قبل ارسطو ومنذ ذلك الحين الى اليوم تقدمت الفلسفة والعلم تقدماً عظيماً الا ان كل تقدم وارتقاء انما كان على الاساس الذي وضعه سقراط وارسطو لها . وكذلك الشأن في يسوع . فان الفكرة الدينية قد اجتازت دوائر عديدة فيما بين عصره الى اليوم قد ارتقت وتقدمت ولكنها لم تخرج ولن تخرج عن القاعدة الاصلية التي خطها يسوع لها . فهو وضع في الارض الى الابد فكرة العبادة النقية . ومن هذا الوجه ليس لديانة يسوع حد تقف عنده . نعم انه كان لكنيسة الزمة وعصور خصوصية حبست عباداتها في رموز واسرار مخصصة ولكن هذا امر سيزول . لان الديانة التي وضعها يسوع هي الديانة المطلقة التي لا تضع شيئاً ولا تقرر شيئاً غير قداسة العواطف . واسرار ومراسم يسوع ليست مقررة بل هي صور مختلفة قابلة للتبدلات محدودة . وفي الحقيقة ان اعظم قداسة الانجيل انه لا تجد به تقرير عقيدة لاهوتية وكل ما فيه من المعتقدات مقتبس من افكار يسوع مؤولة تأويلاً متكلفاً لان يسوع مع تلامذته كشأن ارسطو مع تلامذته الاسكولاستيك . فان هؤلاء الاسكولاستيك ان ارسطو هو العلم الصحيح وان العلم الذي وضعه لم يكن لا يتقدمه شيء . قد اقتفوا افكار ارسطو نفسه . ولو شهد ارسطو تلاميذه هؤلاء حتى عملهم لجاء هذا العالم الشريف الآن في جانب خصومهم اي في جانب العلم العصري الذي ينكر التقليد الاعمى لا سيما وانه بنى هذا التقليد على سلطته . بل انه كان يحتقر احترام الافكار معارضيه ومجادليه على ما هم قد اصابوا . وهكذا يسوع . فانه لو عاد الينا اليوم لانه لا يعتبر من تلامذته اولئك الذين يدعون حصر فكره في بضع عبارات يسطرونها في كتاب مبادئ التعليم المسيحي . بل اولئك الذين يحتذون حذوه ويكملون عمله في عالم الروح والفكر

وان المجد العظيم لكل ذي مجد ان يكون قد وضع الحجر الاساسي الاول . فليس بعيد ان لا يوجد اليوم في كتب العلم كلمة مما قاله ارسطو ولكن ارسطو مع ذلك سيبقى معدوداً مؤسس العلم . وكذلك يسوع فانه مهما تغيرت العقائد والافكار سيكون الى الابد معدوداً في الدين مؤسس (العواطف النقية) . فان خطبته على الجبل لا يفوقها شيء في المستقبل ابداً . وكل الثورات التي تحدث في الارض لا يمكن ان تمنعنا من ان يكون لنا اتصال في الدين بذلك السلف الفكري العظيم الذي يسطع في مقدمته يسوع سطوع القمر المنير . ومن هذا الوجه نحن مسيحيون حتى ولو افترقنا في جميع الامور تقريباً عن التقليد

المسيحي الذي تقدمنا

وهذا البناء العظيم بناه يسوع وحده . فان تلاميذه لم يجودوا ذلك الحب العظيم الا بجاذبية شخصه . لان الحب لا يحدث بلا سبب موجب له . ولو لم نعرف شيئاً عن يسوع سوى ذلك الحب الشديد الذي جذب به تلاميذه اليه لكفى ذلك برهاناً على عظمته وقدرته . فان ايمان الجيل المسيحي الاول وحماسته وثباته في ايمانه — كلها امور غير مفهومة الا اذا افترض هناك في اصل الحركة وجود شخص متفرد في العظمة والقوة

فالمسيح اذاً شخص يسوع في اعلى قمة العظمة البشرية . ولا ندع لمات الباحثين سبيلاً لان تنبيه الكرز بحجة ان ذلك التاريخ فوق طور العقل البشري فان حياة ونسوى وامثالهم لم تكن سوى سلسلة معجزات فان افضى ذلك الشك في وجوده . ثم لا نزعم ان الفضل في تأسيس المسيحية عائد للتلامذة بالمظاهر لا شخص لان يسوع كان افضل منهم في كل شيء . فانهم ما عدا بولس وربما يوحنا الانجيلي ايضاً كانوا قوماً سذجاً بلا فكر . حتى بولس نفسه لا شبه بينه وبين يسوع . وهذا هو السبب في فضل الاناجيل على باقي كتب العهد الجديد . والعلة في الخيبة التي يقع فيها القارئ متى انتقل من مطالعة تاريخ يسوع الى مطالعة تاريخ تلامذته . وان كتبة الاناجيل انفسهم الذين رسموا لنا صورة يسوع كانوا دون صاحب الترجمة بمراحل حتى شبه لعدم وصولهم الى علوه كانوا كثيراً ما لا يحسنون التعبير عن افكاره . ففي كتاباتهم كثير من الخطاء والمناقضات . وفي كل سطر منها يشعر القارئ بان هنالك جمالاً الهياً ولكن الكاتب لا يحسن ترجمته وابرازه لانه لا يفهمه ولذلك يبدله بفكره الخاص . وجملة الكلام ان تلامذة يسوع قد اضعفوا جمال صورته بدل ان يزيدوها زينة . وكثيراً ما رأوا هذه الزينة تحولت بين ايديهم ضعفاً

واذا كان قد انتفى هذا الزعم فهل يصدق زعم الذين يزعمون ان يسوع المسيح نتيجة من كتبة اليهود وان عظمته مستمدة من عظمة الشعب اليهودي

لا انكر احداً يرفع اكثر مني شأن هذا الشعب اليهودي الوحيد الذي يظهر ان من خواصه اجتماع النقيضين فيه اي اعظم الخير واعظم الشر . نعم ان يسوع نبت من اليهود ولكنه نبت منهم كما نبت سقراط من مدارس السفسطائيين ولوثر من العصور الوسطى ولامنيه من الكاثوليكية وروسو من القرن الثامن عشر . فان الانسان في هذه الحالة يكون من قومه ومن عصره حتى ولو قاوم ونبذ قومه وعصره . وعلى ذلك فيسوع بدل ان يعد مكملاً للدين

الاسرائيلي هو في الحقيقة مقاوم لروح اليهودي ومقطع كل صلة به . وقد انفصلت المسيحية بعد عن اليهودية انفصالاً تدريجياً . وكذا ليس في العودة الى اليهودية بل الى يسوع [illegible] يكون لا كاملاً ولا يقبل تحريكاً ابداً

وهذا الشخص العظيم الذي لا يزال [illegible] الدنيا حتى اليوم هو الشخص الذي لا يجوز ان يستغرق كل ما للنوع الالهي . بل يجوز انه الفرد الذي دفع [illegible] نحو الالهي [illegible] خطوة اعظم [illegible] الانسانية اجمالاً انما هي عبارة عن مجموع مخلوقات واطئة عديدة [illegible] لا تفضل الحيوان الا شيئاً [illegible] النظر والفكر . وبين هذه الانسانية الواطئة التي تقيم الاعمدة شاهقة ترتفع نحو السماء طالبة فرحاً آخر غير الارضي . هي عبارة عن دليل يدل الانسان من اين خرج والى اين يجب ان يتجه . ويسوع كان اعلى هذه الاعمدة . في طبيعته [illegible] كل ما في طبيعتنا من صلاح وجمال [illegible] الاهواء التي [illegible] كانت اسمى الاعمدة [illegible] في العالم الماضي قدام [illegible] الانسانية [illegible] يسوع [illegible] المسيح في آخر حياته لا يرى [illegible] ما يوجد في الارض [illegible] والامور الدينية [illegible] يسوع [illegible] المسيح لا يعيش الا [illegible] ذكر ابيه السماوي [illegible] في الارادة [illegible] يسوع السماء [illegible]

ولا [illegible] المستقبل [illegible] بل [illegible] الانسانية [illegible] جبابرة العصور القديمة [illegible] ولكن كيفما كانت [illegible] يسوع لا [illegible] المستقبل [illegible] الى ما [illegible] العيون [illegible] ذلك [illegible] . وكل القرون والاجيال الآتية [illegible] في بني الانسان شخص اعظم من يسوع

[illegible]

الفصل السادس والعشرون

عودة التلامذة الى الجليل بعد موت يسوع

اول ما يقع في ذكر كل من تقدم عهدًا ذكره زيارة الاماكن التي عاش فيها معه ولذلك نجد التلامذة نحو الجليل بعد عيد الفصح بجمعة ايام (١) فكانت الديانة المسيحية عادت في هذا الوقت مع التلامذة الى الارض التي نبتت فيها لتودعها ثانية ثم تعود فتنتشر في الكرة الارضية

وهكذا التقى مرة ثانية بعض التلامذة بيسوع وهم بطرس وتوما ونثنائيل وابنا زبدي على شاطئ بحيرة طبرية وقضوا معًا وعادوا الى صناعة صيد السمك في بيت صيدا وكفرناحوم كما كانوا من قبل . وقد عادت النسوة الجليليات الى الجليل معهم . ولا شك ان اللواتي صحبنهم في هذه العودة يحنين الى الوطن الاول الذي شاهدن فيه ما شاهدن من الحوادث الجديدة . وبعد آخر خبر عنهن في تأسيس الديانة المسيحية . ومنذ هذا الحين لم يعد لهن اثر في تاريخ المسيحية لانهن كن مفارقة تلك البلاد التي ذقن فيها اعظم المسرات . وهكذا وضع ذكرهن منذ ذلك الحين في زاوية النسيان . وبما ان المسيحية في بلاد الجليل لم تقم ما بعد ذلك الا فقد نقصت اهمية هؤلاء النسوة اللواتي كان لهن الفضل العظيم في تأسيس الديانة المسيحية بقي ذكرهن في بعض التقاليد . وهكذا لم تعد مريم المجدلية ومريم كليوباس وحنة ويونا — هؤلاء الجليليات اللواتي يجب ان يعدهن المؤسسات الحقيقيات للدين المسيحي — الا كقديسات مغمورات لا اعتبار لهن . لان القديس بولس لا يعرفهن (٢) وقد بقين مهملات حتى القرون المتوسطة . فيومئذ استرددن المنزلة التي لهن . وصارت مريم المجدلية في نظر المسيحية ذلك المقام الرفيع الذي

---

(١) وهناك سبب آخر وهو ما جاء في الانجيل من اعتقاد التلامذة ان يسوع سبقهم الى الجليل

(٢) قال الرسول بولس عن ظهور المسيح في ص ١٥ ع ٥ من رسالته الى كورنثوس "انه ظهر لصفا ثم للاثني عشر وبعد ذلك ظهر دفعة واحدة لاكثر من خمس مئة اخ" . وقد اغفل الرسول ذكر مريم المجدلية وباقي النسوة اللواتي جاء في الانجيل انهن كن اول من شاهدنه . وهو اجحاف بحقوق النساء

كان من حقها

وكان التلامذة يعيشون يومئذ في الجليل كاخوة وقد اجتمع حولهم نحو خمس مئة نفس من الجليليين الذين كانوا عرفوا يسوع وانجذبوا الى تعليمه . فاقاموا في تلك البلاد نحو سنة وهم يعيشون اجمل عيشة لان روح يسوع كانت ترفرف عليهم وتظهر لهم . فكانت حياتهم هذه عبارة عن تطورات جميلة

الفصل السابع والعشرون

عودة الرسل من الجليل الى اورشليم والشروع في البشارة
« الصعود »

وبعد اقامة الرسل سنة في بلاد الجليل كما تقدم رأوا العودة الى اورشليم لان يسوع امرهم بان ينتشروا في الارض للبشارة بالحكمة في جميع الاقطار . وكانت اورشليم اول هذه الاقطار بالطبع . فساروا اليها وهجروا وطنهم الجليل هجرة لا رجوع بعدها اليه . ولا خلاف في انه بقي بعد ذلك في الجليل كثيرون من اتباع الرسل ولكن لم يرد لهم ذكر فيما بعد . فمن بعيد ان يكونوا قد فنيت آثارهم في تلك البلاد كما فني فيها كل شيء في الحرب التي اثارها فيها اسباسيانوس الروماني . ومن المعلوم ان الطوائف التي كانت تعيش في تلك البلاد قد لجأت بعد هذه الحرب الى ما وراء نهر الاردن . فلما سكنت رحى هذه الحرب امتنع المسيحيون من العودة اليه وعاد اليها اليهود فقط . وهكذا صارت الجليل في القرن الثاني والثالث والرابع عبارة عن مركز اليهودية ووطن اليهود . وبناء على ذلك لم تدخل الجليل في تاريخ الديانة المسيحية الا زمنا محدودا . ولكن هذا الزمن كان اقدس الازمان واعظمها . ذلك لان جمال الدين المسيحي وقوته ومبادئه اعني « الانجيل » لم يبرز الى الوجود الا في هذا الزمن . فالانجيل اذاً من اصل جليلي . وسيرد الكلام على ان الانجيل كان السبب الاول في نجاح الديانة المسيحية في الماضي وسيكون الضمانة الوثيقة لها في الزمن الآتي

وبعد اجتماع التلامذة في اورشليم كان صعود يسوع كما ورد في الانجيل . وقد قال لوقا الانجيلي في ذلك « وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وصعد الى السماء فسجدوا له ورجعوا الى اورشليم بفرح عظيم »

اما نحن فلما نفارق يسوع بحزن عظيم . نتاركه هنا ونودعه لنذكر تاريخ التلامذة .

ولقد كان في حياته الثانية هذه جمال وسناء يعزي النفس ويجعلها تشعر بقربها من ذلك الذي كان مثالا للجمال والسناء والنبل · كانت هذه الحياة في الحقيقة صورة للاولى · وحرمنا الآن منها لانا حرمنا ذلك العرف الطيب الذي كان ينتشر من شخصه ونفسه · لقد صعد الى العالم الذي يجب ان يحل فيه كما ان جماعة من البشر كل ملائكة البشر · فما اصعب هذا السقوط · وما اشد البعد بين امس واليوم · يا ايتها الارض لقد ذهب ابنك الجمال والسناء فالبسي هذا الاسى المفقود · انظري لقد نزعت من الجمالية في قربها العذب فيا لتذكاراتها الحبيبة · لقد بطلت الخطب في الجبل وبطل نشيد الجليل ومداولة الزرقاء · لقد ذهب مؤسس ديانة الحق والروح · وسيكون تاريخ هذه الديانة بعده تاريخ الابتعاد عنها عن المبادئ الالهية الازلية التي وضعها مؤسسها · ومع ذلك فان هذا التاريخ مع ما طرأ عليه فانه بقي صحيحا عند ذلك المؤسس العظيم · ذلك لان صورة هذا الابن الصالح وكلامه الحي سيكونان دائما في وسط صغائر الامور وعثراتها رمز الصورة للكمال الرفيع الذي لا يبلغ طرف الانسان حده

تم تاريخ المسيح

ويليه تاريخ الرسل

ذيل اول

رد رنان على حارميه ومناظريه

(بعد ظهور كتابه هذا)

لما انتشر كتاب رنان هذا صدر امر من الكنيسة بحرمان رنان منها كما حرم المجمع الرومي المقدس الفيلسوف بولستوي في العام الماضي ، وانهالت الردود على صاحب الكتاب ، وكان الرادون عليه فريقين : فريق الاكليركيين ولا حاجة الى ذكر براهينهم لانها معروفة ، وفريق الماديين وهؤلاء عنفوا المؤلف لانه اعتمد على الانجيل في كتابة تاريخه واثنى على المسيحية وعلى العواطف الدينية ثناء لا يصدر عن اعظم انصار الاديان . اما رنان فقد ردَّ على الفريقين في مقدمة كتابه « تاريخ الرسل » ما خلاصته :

« اني اؤمل ان بعض القراء الذين تحمسوا منذ سنتين ونصف سنة لمطالعتهم « تاريخ يسوع » يطالعون هذا الكتاب بهدوءٍ ورزانة . فان المجادلات الدينية لما تبقى واقفة على سوء القصد من طالب المجادلة على غير علم منه ولا قصد . ذلك لانه لا يطلب الحقيقة بهدوءٍ ورزانة حيثما كانت ولكنه يؤكد ان الحقيقة في قبضته ولذلك لا يكون له همٌّ غير نسبة الجهل والافتراء الى مناظره . فالطعن والسب وتزوير الافكار والاقوال والاقتداء والاحتذاء بعواطف البسطاء والجهلاء — كل ذلك يراه طالب المناظرة الدينية امراً جائزاً له لانه يزعم انه يدافع عن الحقيقة التي يراها في قبضته . ولقد كنت اتوقع ذلك لانني لا لا اجهل حوادث التاريخ واري في نفسي من الهدوء وثبات الجأش ما يحول بيني وبين الغاء ان

منه . فما استقبلته بهذا الهدوء كما استقبل بسرور ونفوذ العواطف الباسطة المؤثرة التي حملت مناظري على هذه المناظرة . وكلما رأيت ذلك الغضب الصادر بصراحة من نفوس كريمة نقية فانني لا اتمالك ان اصيح . يا للبساطة المقدسة . كما صاح جان هوس اللاهوتي الذي اعدم حرقاً بالنار اذ رأى امرأة تأتي الى محرقته بحزمة حطب والعرق يتصبب منها من التعب . ولكني اسقط كل الاسف لان كل ذلك الضجيج والغضب لا يفيد الحقيقة شيئاً . ولا غرابة في ذلك فان الحقيقة لا تخفى للذين يطلبونها بجسارة وغضب . ولكن للذين يطلبونها بهدوء وتأمل دون غرض ولا بغض . وليس في ذكر الانسان مبدأ من المبادئ اهانة لاحد فان الذين يرون فيه اهانة لمبادئهم يستطيعون التخلص منه بعدم وقوفهم عليه . هكذا يصنع الجبناء وضعفاء العقول اذا لم يقرأوه

ولقد كتب اليَّ بعض الناس من كل صوب يقولون ما غرضك من هذا . ومـاذا تريد . فانا اجيبهم بان غرضي كغرض كل مؤلف يكتب في التاريخ . ولو كان لي عشرة اعمار لا عمر واحد لوقفت احدها لكتابة تاريخ الاسكندر المكدوني والثاني لكتابة تاريخ ايطاليا والثالث لكتابة تاريخ الثورة الفرنسوية والرابع لكتابة تاريخ جمعية سان فرنسوى . واي غرض يكون لي اذا كتبت هذه الكتب . لا يكون لي غرض سوى وجود الحقيقة واحيائها واعادة ذكر الحوادث الكبرى التي حدثت في الزمن الماضي بقدر ما يمكن من الصدق والتدقيق . اما زعزعة عقائد الناس فهذا امر بعيد عن فكري . ولو كنت اقصد ذلك لطرقت هذا الموضوع من باب آخر بان اتناول الاقوال والافعال والاخبار فاعيدها دون فحصها واسقط التناقض الذي بينها ولا اعطي احداً من كلامي حجة عليَّ . ولكنني لا اكتب لهذا وانما اكتب لتقرير الحقيقة . ومتى كتب الانسان لهذا القصد وجب ان لا يعبأ بشيء وان لا يتساهل في شيء بل ان يكتب كأنه يكتب لكرة فراراً لا اثر لها . والا فان كل تساهل وكتمان يعد اهانة للحقيقة ولمناعة الحكمة السامية

نحن اذا كتبنا ما نكتب دون ان نطلب اسكات المبادئ التي تناقض مبادئنا او ان نفحصها ونحمل عليها . بل نكتب دون التفات اليها كأنها غير موجودة عندنا . واذا قبل احد مبادئنا فذلك دليل على ان عقله مستعد لها اما من كان عقله غير مستعد لها فانه لا يقبلها . وليس يسوءني شيء في العالم مثل ان يتهمني احد بان اجتذب الى هذه المبادئ رجلاً لا يأتي اليها من تلقاء نفسه . وذلك مما يجعلني اقتنع اني انما اصبحت مضطرب الفكر بعد الهدوء ولا سيما خصوصاً فقد اتى في حق صرت لا تروقني بهجة الدنيا ولا

اكتفي بمشاهدة جمال العالم ...

فعملي انا مقصور في كتبي على البحث عن الشرائع العامة التي تحكم الانسانية والتدرج الانسانية فيها . ولست اتنازل عن هذا العمل الى فن المجادلة وان كان هذا الفن اكثر ثمرة لصاحبه . ولذا ازمن المجادلة من دوائر بكتبي . فانه اذا نشرت كتبه من جديد كان فيها جواب لكل طالبي المجادلة . ولا انكر انه جواب سيء في ذاته ولكنه منطبق على ما يروم القصد . فهو جواب منا حواتش منا أخر . اما نحن معشر عشاق الحق وطالبي الحقيقة فما بنا ان نصنع الفن من ذلك . علينا ان نترك تلك المجادلات لمن يطلبونها ونشتغل بالفئة القليلة التي تسير في جودة الانسانية والصراط المستقيم

هذا هو سبيلي في كتابة التاريخ . ولست اجهل ان بعض الناس يستبطئون سير الفكر ولا يحبونه ولذلك يطلبون منه السرعة في عمله . اما نحن فلا نكون من جماعة الاء الناس بل نتجنب العجلة ولا نؤسس شيئاً جديداً . وليبق كل واحد منا في قلب كنيسته منصرفاً الى فضائلها القديمة واعمالها الخيرية ومتمتعاً بجمال الماضي . ولا نبغض تعصب هذه الكنائس بل فلندفع عنه لان هذا التعصب حاجة من حاجات القلب البشري مثل حب الذات الفطري . ومن المحتمل ان العلائق بين البروتستانت والكاثوليك واليهود تتغير بعد مائة سنة ولكنها لا تتغير كثيراً او قد يذكر الارثوذكسي انه ليس في فرنسا احد منهم ا . الا انه سيحدث انقلاب عظيم من وجه آخر . فان كل واحد من هذه المذاهب ينقسم اهله قسمين . فقسم يعتقد بقواعد مذهبه حرفياً كما كان يعتقد الناس بها في القرون الوسطى وقسم يعتقد بآدابها فقط لا بكل ما فيها حرفياً . وهذا القسم الثاني يزداد وينمو في كل مذهب . وبما ان الذي يفرق الناس الآن هو حرفية القواعد لا مبادئها الاجمالية فان انصار هذا القسم من كل المذاهب يتقربون بعضهم من بعض الى درجة يرون القسم عندها في غنى عن قطع صلاتهم بالقسم الاول من اجل اتحادهم . ويومئذ يغرق التعصب في سيل من التساهل العمومي . وتصبح الطقوس والتقاليد فلكاً سرياً يتفق الجميع على عدم فتحه . واذا كان هذا الفلك فارغاً فاي ضرر في فراغه . على اني اخشى ان يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا الارتقاء العام في العقائد . ولكني اعرف ان في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامي القديمة وبينهم نخبة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة تدل على فكر واسع وعقل ميال الى المسالمة . الا اني اخشى ان تخنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الشعوب . فاذا اتفق

تقضي على المدن الاسلامي . ذلك انه من الثابت الآن امران : الاول ان التمدن الحديث لا يريد اماتة الاديان القديمة موتاً نهائياً لانه يتخذها آلة له . والثاني انه لا يطيق ان تكون هذه الاديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الاديان اما ان تسالمه وتلين او ان تموت

فما الفائدة اذاً من وضع مبادئ الدين الاصلية النقية من كل شائبة في موضع يؤذيها بدلاً من بقائها خارج دائرة الاحزاب والمذاهب ? ما الفائدة من اقامة مذهب ضد مذهب وراية ضد راية اذا كان الخلاص ممكناً لجميع وغير متوقف الا على نقاء باطن الانسان وطيب اخلاقه ? ومن المعلوم ان الانقسام بين البشر والتعصب في المعتقدات يؤديان الى رد الفعل في كل امر وكل مذهب . فانه لولا لوثيروس وكالفين لما قام كرافا وجسليري ولويولا وفيليب الثاني . اما نحن فاذا نبذتنا كنيستنا وجب ان لا نغضب ولا نتكلم . وانما يجب ان نتذكر بسرور تلطف العادات العصرية وانقلاب الزمان الذي صيّر هذا البغض الاثيم كأنه لم يعد شيئاً مذكوراً . ولنعزّ انفسنا عن ذلك بانا نأمل في بقاء الكنيسة الغير المنظورة التي تشتمل على رجال الصلاح الحقيقيين وتلك الرجال الذين هم في كل مذهب نخبة الكنيسة التي تحويهم . وهؤلاء الرجال هم متقدمون عصرهم وقواد الجيل الآتي لانهم سيكونون في المستقبل بالنسبة الى تطرف الاجيال الآتية اكثر الناس اعتقاداً بالمبادئ الدينية . ومع ذلك فاي معنى للحرمان وما الفائدة منه . ان الاب السماوي لا يحرم الا العقول الجافة والنفوس الشرهة والقلوب الدنيئة . واذا كان معنى الحرم ان الكاهن لا يقبل جثتنا في مدفنه فعلينا ان نقي جثتنا من تدنيسها له . والله بيننا خير الحاكمين . اما الارض فهي ام حنون لا تفرق بين جثة وجثة . وجثة الرجل الصالح متى دفنت في حفرة فيها فانها تجلب البركة معها من عند نفسها

وليس اجمل ان اتباع هذه المبادئ صعب على بعض الناس خصوصاً المرتبطين بالنذور كرجال الاكليروس . مثال ذلك ان كاهناً شريف الاخلاق تحقق فراغ الدين الذي انتمى اليه واستقامة اهل مخالفة القواعد . فما عليه ان يعمل . هل يجب ان يبقى الى الحين كان يرجمهم ويسليهم بان يطلعهم على الكذب الذي لا يعلمونه ? معاذ الله ان يكون ذلك واجباً عليه لانه ليس في العالم كله رجلان واجباتهما متساوية . فان مطران كولانيو مثلاً قد صنع صنعاً دلّ على نزاهة سيرته وسريرته اذ وقف بين امرائه الشكوك التي قامت في نفسه بشأن معتقداته . وهذا العمل فريد في بابه منذ قيام الديانة المسيحية . ولكن الكاهن الفرنسوي الذي تقوم في نفسه شكوك كتمت الشكوك عنه السكوت في الاوساط

العقول كالاذن · ولذلك سكت كثيرون من الكهنة · واذا فتشت حول كنائس القرى وجدت كثيرا من القبور تضم اناسا لم يقف عليها احد غيرهم · فهؤلاء الذين سكتوا مساوون في الفضل لاولئك الذين نطقوا

ولنا رأي [illegible] آخر · والكل يجب ان يبقى كلا في حدود [illegible] والا فانه يموت اذا اريد العمل به · وكم من الافكار والمبادئ تكون مفيدة لاهل [illegible] وتعجب العقول النيرة ومضرة بالطبقة الواطئة · ذلك ان الانسان لا يستطيع ان يعمل عملا عقليا الا اذا كانت له خطة مقررة وطريق مخطوطة · وهذا شيء يقضي ان القواعد حدودا معينة · واذا كان الانسان مجردا عن كل وهم وعادة واصطلاح فانه يكون مخلوقا ضعيفا · فنحن [illegible] ان [illegible] الحرية المطلقة [illegible] ولكن لا نجهل [illegible] في ما يصيب الهيئة الاجتماعية من تناقص الفضائل اذا ضعفت الديانة الحقيقية · اذ ماذا يكون بدون هذه الديانة اذا انحطت · ومن يقوم مقام تلك الواجبات التي هي عبارة عن مدرسة النظام والجد والاحترام والاخلاص · وكيف لا يخيفنا حينئذ الجفاف والقسوة اللذان يسطوان على كل القلوب والصغائر التي تستولي على العالم · نحن على اتفاق تام في هذه المسائل مع رجال الدين · وانما الخلاف الذي بيننا علمي لا ديني · فقلوبنا اذا معهم وعدونا عدوهم · ونعني بهذا العدو المبادئ المادية الواطئة التي لا ترى في الكون شيئا غير المادة ودناءة بعض البشر نعني بعض رجال الاكليروس الذين يرومون استخدام كل امر حتى الامور المقدسة في سبيل مصالحهم الخصوصية

فعليكم اذا [illegible] ان تتركوا كل خصام ونزاع · دعوا الاحزاب والمذاهب التي وضعها البشر تعيش وتتنافس بعضها مع بعض · ولا تطلبوا من بعضها ان يتنازل عن شيء من مبادئه اكراما للآخر فان ذلك يحط من قدرها · ولا تطلبوا ان يحمل بعضها بعضا وان يسمح بعضها لبعض فانه ليس في الطاقة [illegible] في الذوات ولا سيما [illegible] ان يعيش دون نقيضه · [illegible] ان الشيء ونقيضه في هذا العالم لا بد ان يعيشا [illegible] الانسانية من [illegible] مهما كانت [illegible] ولكن [illegible] استقامة الايمان [illegible] هذه التهمة الى هذا [illegible] معروفة لا تخفى على احد · فان العالم الاسلامي [illegible] وكذلك [illegible] من غير [illegible] الا حاجات [illegible] فاذا تكون التهمة [illegible] هذا الامر معروفة ايضا [illegible]

ظهرت في اثناء الثورة الفرنسوية ٠ وهذا مصير كل افراط وكل تفريط في العالم ٠ انظر الى ايطاليا في ايام نهضتها تجد ان ارتقاء الفنون فيها الى اسمى درجات الكمال جعلها مكانًا قذرًا لان ذلك الكمال في الفنون لم يكن مقرونًا بالفضيلة والحشمة ٠ وانظر الى بعض البلاد البروتستنتية تجد ان التحجر والصغائر والتأخر في الفنون امور تولد فيها عقيب ما على الغالبا الفنون والزينة والتشديد على العلم بحجة البساطة وحفظ اصول الدين الحقيقية ٠ فلوكريس وسنت تريزه ٠ وارسطوفان وسقراط ٠ وفولتير وفرنسوى داسيز ٠ ورفائيل وسان فنسان دي بول — كل واحد من هؤلاء لا غنى للعالم عنه وان اختلفت وجهاتهم ومقاصدهم ٠ واذا فقدت الانسانية واحدًا من هذه العناصر المختلفة التي تتألف منها ضعفت ونقصت نقصًا ظاهرًا فيها ٠ اه

ذيل ثانٍ

تاريخ حياة المسيح واعماله

﴿ كما يكتبه مؤرخو العرب ﴾

(نقلاً عن التاريخ الكامل للمؤرخ الشهير ابي الحسن بن الاثير الجزري)

ليس يخلو من فائدة أن نردف تاريخ المسيح كما كتبه رينان بتاريخ المسيح كما يكتبه مؤرخو العرب نقلاً عن الكتب والاخبار الدينية . فاخترنا من كلامهم بهذا الصدد كلام المؤرخ ابن الاثير الشهير . وهذا نصه

(ذكر ولادة المسيح الى آخر امره)

« كانت ولادة المسيح ايام ملوك الطوائف . قالت المجوس كان ذلك بعد خمس وستين سنة من غلبة الاسكندر على ارض بابل وبعد احدى وخمسين سنة مضت من ملك الاشكانيين . وقالت النصارى ان ولادته كانت لمضي ثلاثمائة وثلاث وستين سنة من وقت غلبة الاسكندر على ارض بابل . وزعموا ان مولد يحيى (١) كان قبل مولد المسيح بستة اشهر وان مريم عليها السلام حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة وقيل خمس عشرة وقيل عشرون . وان عيسى عاش الى ان رُفع الى السماء اثنتين وثلاثين سنة واياما وان مريم عاشت بعده ست سنين فكان جميع عمرها احدى وخمسين سنة . وان يحيى قُتل قبل ان يرفع المسيح . واتت المسيح النبوة والرسالة وعمره ثلاثون سنة . وقد ذكرنا حال مريم في خدمة الكنيسة وكانت هي وابن عمها يوسف بن يعقوب بن ماثان النجار يليان خدمة الكنيسة . وكان

يوحنا المعمدان

يوسف حكيماً نجاراً يعمل بيديه ويتصدق بذلك · وكانت مريم اذا نفد ماؤها وماء يوسف ابن عمها اخذ كل واحد منهما قلته وانطلق الى المغارة التي فيها الماء يستعذبان منه ثم يرجعان الى الكنيسة · فلما كان اليوم الذي لقيها فيه جبرائيل نفد ماؤها فقالت ليوسف ليذهب معها الى الماء · فقال عندي من الماء ما يكفيني الى غد · فاخذت قلتها وانطلقت وحدها حتى دخلت المغارة فوجدت جبرائيل الملاك قد مثله الله لها بشراً سوياً · فقال لها يا مريم ان الله قد بعثني اليك لاهب لك غلاماً زكياً · قالت اني اعوذ بالرحمن منك ان كنت تقياً · اي مطيعاً لله · وقيل هو اسم رجل بعينه وتحسبه رجلاً · قال انما انا رسول ربك لاهب لك غلاماً زكياً قالت انى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر قال كذلك قال ربك الى قوله امراً مقضياً · فلما قال ذلك استسلمت لقضاء الله فنفخ في جيب درعها ثم انصرف عنها · وحملت قلتها وعادت · وكان لا يعرف في اهل زمانها اعبد منها ومن ابن عمها يوسف النجار · فلما حملت دخلت عليها خالتها امرأة زكريا ليلة تزورها · وفتحت لها الباب الخوخة فقالت لها امرأة زكريا اني حبلى فقالت لها مريم وانا ايضاً حبلى فقالت امرأة زكريا اني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك · وولدت امرأة زكريا يحيى ا يوما وقد اختلف في مدة حملها فقيل تسعة اشهر وهو قول النصارى وقيل ثمانية اشهر فكان ذلك آية اخرى لانه لم يعش مولود لثمانية اشهر غيره · وقيل ستة اشهر وقيل ثلاث ساعات وقيل ساعة واحدة وهو الاشبه بظاهر القرآن العزيز لقوله تعالى « فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً » عقبه بالولادة · فلما احست مريم خرجت الى جانب المحراب الشرقي فاتت قصياً فاجاءها المخاض الى جذع النخلة فقالت وهي تطلق من الحبل استحياء من الناس : يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً · يعني نسي ذكري واثري فلا يرى لي اثر ولا عين · قالت مريم كنت اذا خلوت حدثني عيسى وحدثته · فاذا كان عندنا انسان سمعت تسبيحه في بطني · فناداها جبرائيل الملاك من تحتها اي من اسفل الجبل : الا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً وهو النهر الصغير اجراه تحتها · فمن قرأ من تحتها بكسر الميم جعل المنادي جبرائيل ومن فتحها قال المنادي عيسى انطقه الله · وهزي اليك بجذع النخلة · كان جذعاً مقطوعاً · فهزته فاذا هو نخلة · وقيل كان مقطوعاً لا جريد لها فلما طلقت استندت فاستقام واخضر وارطب · فقيل لها وهزي اليك بجذع النخلة فهزته فتساقط الرطب · فقيل لها كلي واشربي وقري عيناً فاما ترين من البشر احداً فقولي اني نذرت للرحمن صوماً فلن اكلم اليوم انسياً · وكان من صام في ذلك الزمان لا يكلم حتى يمسي · فلما ولدته ذهب ابليس فاخبر بني اسرائيل ان مريم قد

ولدت . فاقبلوا يشتدون بدعوتها فاتت به قومها تحمله . وقيل ان يوسف النجار تركها في
مغارة اربعين يوماً ثم جاء بها الى اهلها وكانت من نسل هرون اخي موسى كذا قيل . قلت :
انها ليست من نسل هرون الثاني من سبط يهوذا ابن يعقوب من نسل سليمان بن داود .
وانما كانوا يدعون بالصالحين . وهرون من ولد لاوي بن يعقوب . قالت لم ما امرها الله به
بعد ذلك . وقيل انه لما دنا نفاسها اوحى الله اليها ان اخرجي من ارض قومك فانهم ان
ظفروا بك عيّروك وقتلوا ولدك . فاحتملها يوسف النجار وسار بها الى ارض مصر فلما وصلا الى تخوم
مصر ادركها المخاض . فلما وضعت وهي محزونة قيل لها لا تحزني الآية الى آخرها . فكان الرطب
يتساقط عليها وذلك في الشتاء . واصبحت الاصنام منكوسة على رؤوسها وفزعت الشياطين
فجاءوا الى ابليس فلما رأى جماعتهم سألهم فاخبروه فقال قد حدث في الارض حادث .
فطار عند ذلك وغاب عنهم ثم مرّ بالمكان الذي ولد فيه عيسى فرأى الملائكة محدقين به .
فعلم ان الحدث فيه . ولم تمكنه الملائكة من الدنو من عيسى فعاد الى اصحابه واخبرهم بذلك
وقال لهم ما ولدت امرأة قط الا وانا حاضر لأضلن به اكثر ممن يهتدي . واحتملته مريم الى ارض
مصر فمكثت اثنتي عشرة سنة تكتمه من الناس فكانت تلتقط السنبل والمهد في منكبها . وقيل
ان مريم حملت المسيح الى مصر بعد ولادته ومعها يوسف النجار وهي الربوة التي ذكرها الله
تعالى وقيل الربوة دمشق وقيل بيت المقدس وقيل غير ذلك . فكان سبب ذلك الخوف
من ملك بني اسرائيل وكان من الروم واسمه هيرودس . ان اليهود اغروه بقتله فساروا الى
مصر واقاموا بها اثنتي عشرة سنة الى ان مات ذلك الملك وعادوا الى الشام . وقيل ان هيرودس
لم يرد قتله ولم يسمع به الا بعد رفعه وانما خافوا اليهود عليه والله اعلم

ذكر معجزات المسيح

لما خرجت مريم بمصر نزلت على دهقان وكانت داره يأوي اليها الفقراء والمساكين
فسرق له مال فلم يتهم المساكين فحزنت مريم فلما رأى عيسى حزن امه قال اتريدين
ان ادله على ماله قالت نعم قال انه اخذه الاعمى والمقعد . اشتركا فيه حمل الاعمى المقعد
فاخذه . فقيل للاعمى احمل المقعد فاظهر العجز فقال له المسيح كيف قويت على حمله
البارحة لما اخذتما المال . فاعترفا واعاداه . ونزل بالدهقان اضياف ولم يكن عنده شراب فاهتمّ
لذلك فلما رآه عيسى دخل بيتاً للدهقان فيه صفان من جرار فأمرّ عيسى يده على افواهها
وهو يمشي فامتلأت شراباً وعمره حينئذ اثنتا عشرة سنة . وكان في الكتّاب يحدّث
الصبيان بما يصنع اهلوهم وبما كانوا يأكلون . قال وهب : بينا عيسى يلعب مع الصبيان اذ

وثب غلام على صبي فضربه على رجله فقتله فالقاه بين رجلي المسيح متلطخا بالدم . فانطلقوا به الى المسيح الى الحاكم في ذلك البلد فقالوا قتل صبيا . فسأله الحاكم فقال ما قتلته ارادوا ان يلطخوا به فقال ائتوني بالصبي حتى اسأله من قتله . فتعجبوا من قوله وحضروا عنده القتيل . فدعا الله فاحياه فقال من قتلك فقال قتلني فلان يعني الذي قتله . فقال بنو اسرائيل للقتيل من هذا . قال هذا عيسى ابن مريم ثم مات الغلام من ساعته . وقال عطاء : سلّمت مريم عيسى الى صباغ يتعلم عنده فاجتمع عند الصباغ ثياب وعرض له حاجة فقال للمسيح هذه ثياب مختلفة الالوان وقد جعلت في كل ثوب منها خيطا على اللون الذي يصبغ به فاصبغها حتى اعود من حاجتي هذه . فاخذها المسيح والقاها في حب واحد فلما عاد الصباغ سأله عن الثياب فقال صبغتها فقال اين هي قال في هذا الحب قال كلها قال نعم قال لقد افسدتها على اصحابها وتغيظ عليه . فقال له المسيح لا تعجل وانظر اليها . وقام واخرجها كل ثوب منها على اللون الذي اراد صاحبه فتعجب الصباغ منه وعلم ان ذلك من الله تعالى

ولما عاد عيسى وامه الى الشام نزلا بقرية يقال لها ناصرة وبها سمّيت النصارى واقام الى ان بلغ ثلاثين سنة فاوحى الله اليه ان يبرز للناس ويدعوهم الى الله تعالى ويداوي المرضى والزمنى والاكمه والابرص وغيرهم من المرضى ففعل ما امر به واحبه الناس وكثر اتباعه وعلا ذكره . وحضر يوماً طعام بعض الملوك وكان دعا الناس اليه فقعد على قصعة يأكل منها ولا تنقص فقال الملك من انت قال انا عيسى بن مريم فنزل الملك عن ملكه واتبعه في نفر من اصحابه فكانوا الحواريين (١) وقيل ان الحواريين هم الصباغ الذي تقدم ذكره واصحاب له وقيل كانوا صيادين وقيل قصارين وقيل ملاحين والله اعلم . وكانت عدتهم اثنى عشر رجلاً وكانوا اذا جاعوا او عطشوا قالوا يا روح الله قد جعنا وعطشنا . فيضرب يده الى الارض فيخرج لكل انسان منهم رغيفين وما يشربون . فقالوا من افضل منا . اذا شئنا اطعمتنا وسقيتنا . فقال افضل منكم من يأكل من كسب يده . فصاروا يغسلون الثياب بالاجرة . ولما ارسله الله اظهر من المعجزات انه صوّر من الطين صورة طائر ثم نفخ فيه فيصير طائراً باذن الله . قيل هو الخفاش . وكان غالباً على زمانه الطب فاتاهم بابراء الاكمه والابرص واحيا الموتى تعجيزاً لهم . فممن احياه عازر وكان صديقاً لعيسى فمرض فارسلت اخته الى عيسى ان عازر يموت فسار اليه وبينهما ثلاثة ايام فوصل اليه وقد مات

(١) الحواريون رسل المسيح وتلامذته

منذ ثلاثة ايام فأتى قبره فدعا له فعاش وبقي حتى ولد له . واحيا امرأة وعاشت وولد لها . واحيا سام بن نوح . وكان يوماً مع الحواريين يذكر نوحاً والغرق والسفينة فقالوا لو بعثت لنا من شهد ذلك فاتى تلاً وقال هذا قبر سام ابن نوح ثم دعا الله فعاش وقال : قد قامت القيامة ؟ فقال المسيح لا ولكن دعوت الله فاحياك . فسألوه فاخبرهم . ثم دعا ميتاً واحيا عزيراً النبي . قال له بنو اسرائيل احي لنا عزيراً والا احرقناك فدعا الله فعاش . واحيا يحيى بن زكريا واحيا غير من ذكرناه وكان يمشي على الماء

ذكر نزول المائدة

وكان من المعجزات العظيمة نزول المائدة . وسبب ذلك ان الحواريين قالوا له يا عيسى هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء . فدعا عيسى فقال اللهم انزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لاولنا وآخرنا . فانزل الله المائدة عليها خبز ولحم يأكلون منها ولا تنفد . فقال لهم انها مقيمة ما لم تدخروا منها . فما مضى يومهم حتى ادخروا . وقيل اقبلت الملائكة تحمل المائدة عليها سبعة ارغفة وسبعة احوات حتى وضعوها بين ايديهم فأكل منها آخر الناس كما اكل اولهم . وقيل كان عليها من ثمار الجنة وقيل كانت تأتيهم بكل طعام الا اللحم . وقيل كانت سمكة فيها طعم كل شيء . فلما اكلوا منها وهم خمسة آلاف وزادت حتى بلغ الطعام ركبهم قالوا نشهد انك رسول الله . ثم تفرقوا فحدثوا بذلك فكذب به من لم يشهده وقالوا سحر اعينكم . فافتتن بعضهم وكفر فمسخوا خنازير ليس فيهم امرأة ولا صبي . فبقوا ثلاثة ايام ثم هلكوا ولم يتوالدوا . وقيل كانت المائدة سفرة حمراء تحتها غمامة وفوقها غمامة وهم ينظرون اليها تنزل حتى سقطت بين ايديهم . فبكى عيسى وقال اللهم اجعلني من الشاكرين . اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ولا عقوبة . واليهود ينظرون الى شيء لم يروا مثله ولم يجدوا ريحاً اطيب من ريحها . فقال شمعون (سمعان) يا روح الله أمن طعام الدنيا ام من طعام الجنة . فقال المسيح لا من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة انما هو شيء خلقه الله بقدرته . فقال لهم كلوا مما سألتم . فقالوا له كل انت يا روح الله فقال معاذ الله ان آكل منها . فلم يأكل ولم يأكلوا منها . فدعا المرضى والزمنى والفقراء فأكلوا منها وهم الف وثلاثمائة فشبعوا وهي بحالها لم تنقص . فصح المرضى والزمنى واستغنى الفقراء . ثم صعدت وهم ينظرون اليها حتى توارت . وندم الحواريون حيث لم يأكلوا منها . وقيل انها نزلت اربعين يوماً كانت تنزل يوماً وتنقطع يوماً . وامر الله عيسى ان يدعو اليها الفقراء دون الاغنياء ففعل ذلك فاشتد على الاغنياء وجحدوا نزولها وشكوا في ذلك وشككوا غيرهم فيها . فاوحى الله الى عيسى اني

ثم قال ان اعذب المكذبين عذاباً لا اعذب به احداً من العالمين فمسخ منهم ثلاثة وثلاثين رجلاً فاصبحوا خنازير . فلما رأى الناس ذلك فزعوا الى عيسى وبكوا وبكى عيسى على الممسوخين . فلما ابصرت الخنازير عيسى بكوا وطافوا به وهو يدعوهم باسمائهم يشيرون برؤوسهم ولا يقدرون على الكلام فعاشوا ثلاثة ايام ثم هلكوا

ذكر رفع المسيح الى السماء ونزوله الى امه وعوده الى السماء

قيل ان عيسى استقبله ناس من اليهود فلما رأوه قالوا قد جاء الساحر ابن الساحرة . فسمع ذلك ودعا عليهم فاستجاب الله دعاءه ومسخهم خنازير . فلما رأى ذلك رأس بني اسرائيل فزع وخاف وجمع كلمة اليهود على قتله فاجتمعوا عليه فسألوه فقال : يا معشر اليهود ان الله يبغضكم . فغضبوا من مقالته وساروا اليه ليقتلوه فبعث الله اليه جبريل فادخله في خوخة الى بيت فيها روزنة في سقفها فرفعه الى السماء من تلك الروزنة . فامر رأس اليهود رجلاً من اصحابه اسمه ططيانوس ان يدخل اليه فيقتله فدخل فلم ير احداً والقى الله عليه شبه المسيح فخرج اليهم فظنوه عيسى فقتلوه وصلبوه . وقيل ان عيسى قال لاصحابه ايكم يحب ان يُلقى عليه شبهي وهو مقتول . فقال رجل منهم انا يا روح الله . فالقي عليه شبهه فقتل وصُلب . وقيل ان الذي شبه بعيسى وصلب رجل اسرائيلي اسمه يوشع ابفا . وقيل لما اعلم الله المسيح انه خارج من الدنيا جزع من الموت فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال : احضروني الليلة فان لي اليكم حاجة . فلما اجتمعوا عشاهم وقام يخدمهم فلما فرغوا اخذ يغسل ايديهم بيده ويمسحها بثيابه فتعاظموا ذلك وكرهوه فقال من يرد عليّ الليلة شيئاً مما اصنع فليس مني . فاقروه حتى فرغ من ذلك ثم قال اما ما خدمتكم على الطعام وغسلت ايديكم بيدي فليكن لكم بي اسوة فلا يتعاظم بعضكم على بعض . واما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء ان يؤخر اجلي . فلما نصبوا انفسهم للدعاء اخذهم النوم حتى ما يستطيعون الدعاء فجعل يوقظهم ويقول : سبحان الله ما تصبرون لي ليلة . قالوا والله ما ندري ما لنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نقدر عليه الليلة وكلما نريد الدعاء حيل بيننا وبينه . فقال يُذهب بالراعي ويتفرق الغنم . وجعل ينعي نفسه ثم قال : ليكفرن بي احدكم قبل ان يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني احدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني . فخرجوا وتفرقوا وكانت اليهود تطلبه فاخذوا شمعون احد الحواريين وقالوا هذا من اصحابه . واختلف العلماء في موته قبل رفعه الى السماء فقيل رُفع ولم يمت وقيل توفاه الله ثلاث ساعات ثم احياه ورفعه . ولما رُفع الى السماء قال الله له انزل . فلما قالوا لشمعون عن المسيح جحد وقال ما انا

DATE DUE

JAFET LIB.
5 JAN 2
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
01 FEB 2
Circulation Dept. 4

JAFET LIB.
FEB 2
Circulation Dept. 4

3
JAFET LIB.
23 FEB 2000
Circulation Dept. 3

A.U.B. LIBRARY

A. U. B. LIBRARY

CA [redacted] 232.9:R39vA· [redacted]
رينان ،ارنست
تاريخ المسيح
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES

CA
[redacted]
232.9
R39VA [redacted]
[redacted]

CA
232.9
R39vA